

مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي
سلسلة الدراسات الحضارية

العدالة أساسًا ومقصدًا

تأمّلات في بناء المجتمع القرآني

محمد رضا حكيمي

العلّامة محمد رضا حكيمي

ولد عام ١٩٣٥م في مشهد بإيران. التحق بالحوزة العلميّة في مشهد، فدرس على عدد من أقطابها. أجازه آقا بزرگ الطهراني بالاجتهاد. قضى شطرًا من عمره في الكتابة والتأليف، وجعل البحث عن العدالة الاجتماعيّة جزءًا من اهتماماته الأولى، ولأجل هذا يعبّر عنه أحيانًا بلقب «فيلسوف العدالة»، وله مواقف تشهد بحرصه في مقام العمل على العدالة.

له عددٌ من الأعمال العلميّة منها:

- الحياة، وهي موسوعة جمع فيها عددًا من الأحاديث في موضوعات فكريّة واجتماعيّة، وصنّفها وعلّق عليها. وساعده في إنجازها آخرون.
- دانش مسلمين (علم المسلمين).
- بيدارگران اقاليم قبله (موقظو أقاليم القبلة).
- مكتب تفكيك (مدرسة التفكيك).
- اجتهاد وتقليد در فلسفه (الاجتهاد والتقليد في الفلسفة).
- الهيات الهى والهيات بشرى (الإلهيات الإلهيّة والإلهيات البشريّة)
- جامعه سازى قرآنى (هذا الكتاب).
- شرف الدين (شرف الدين).
- عقل سرخ (العقل الأحمر).
- معاد جسمانى در حكمت متعاليه (المعاد الجسماني في الحكمة المتعالية).

العدالة أساسًا ومقصدًا

تأمّلات في بناء المجتمع القرآني

محمد رضا حكيمي

العدالة أساسًا ومقصدًا

تأمّلات في بناء المجتمع القرآني



المؤلف: محمد رضا حكيمي

العنوان: العدالة أساسًا ومقصدًا: تأمّلات في بناء المجتمع القرآني

العنوان الأصلي: جامعه سازى قرآنى

ترجمة: مسعود فكري ومحمد جواد غوديني

مراجعة الترجمة وتقويم النص: فريق مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

الناشر الأصلي: انتشارات دليل ما

الإخراج: هوساك كومبيوتر برس

تصميم الغلاف: Only Create

الطبعــة الأولى: بيروت، 2016

طباعة: 03 336218 UK DB

ISBN: 978 - 614 - 427 - 063 - 9

Justice as a Basis and Goal
Reflections on Qoranic society

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن قناعات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي واتجاهاته»



مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

Center of Civilization
for the Development of Islamic Thought

بناية ماميا، ط 5 ـ خلف الفانتزي وُرلد ـ بولفار الأسد ـ بئر حسن ـ بيروت

هاتف: 826233 (9611) ـ فاكس: 820378 (9611) ـ ص. ب 25/ 55

info@hadaraweb.com
www.hadaraweb.com

المحتويات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة النَّاشِرَين

لا شكّ في أنّ الإسلام ليس دينًا فرديًّا على الرغم من اهتمامه بالفرد والحياة الدينية الفردية كثيرًا، وهو مع ذلك لم يتجاهل المجتمع حتّى في العبادات التي يتوقّع منها أن تكون تجلّيًا لعلاقة الفرد بربّه. ولكن عندما ننظر إلى العبادات في الإسلام نجد أنّ البعد الاجتماعي فيها على درجة عاليةٍ من الوضوح. فقد ندب الإسلام إلى صلاة الجماعة ودعا إليها ورجّحها على صلاة الإنسان منفردًا. وأوجب الصوم وأشارت الأخبار الواردة عن أهل العصمة (ع) إلى الهدف الاجتماعي من تشريعه. وأوجبت الشريعة الهدي في الحجّ، وأخبرنا الله تعالى عن عدم وصول لحوم الأضاحي ولا دمائها إليه عزّ شأنه وتعالى، وأخبرنا أنّ الهدف هو إطعام القانع والمعترّ. ناهيك عن تشريع الخمس والزكاة والكفّارات وغيرها. واللائحة تطول إذا أردنا استعراض التشريعات الاجتماعية في الإسلام. إذًا الإسلام دينٌ اجتماعي اهتمّ بالفرد أو العكس.

وما تقدّم سمح للعلامة محمد رضا حكيمي بالبحث عن الأسس التي يقوم عليها الاجتماع القرآني فانتهى إلى أنّ العدالة والصلاة هما الركنان اللذان يقوم عليهما بناء المجتمع بحسب القرآن الكريم. ومن هنا حاك قطب كتابه هذا بخيوط البحث عن الصلاة وأهميتها في الإسلام وثنّى بالبحث عن الأدلة والمؤشّرات التي تفيد ضرورة تحويل مفهوم العدالة من شعار إلى

أيديولوجيا للتطبيق في واقع الحياة الإسلامية. منطلقًا في ذلك من تشخيصه القائم على أنّ أهمّ مشكلة يعانيها الإنسان المعاصر هي مشكلة العدالة الاجتماعية.

وأما عن موقفنا من الكتاب فإنّنا نقدّمه للقارئ الكريم تاركين الحكم عليه له. ولأنّا رأينا في الكتاب فائدة تُضاف إلى المكتبة العربية عملنا على ترجمته ونشره بالتعاون بين: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ومؤسسة «ترجمان» للترجمة والنشر. ونأمل أن يكون هذا الكتاب خطوة من خطوات التعاون بين المؤسسات الفكرية والثقافية لنشر ما ينفع الناس ويثبت في الأرض.

مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي
ومؤسسة «ترجمان» للترجمة والنشر
بيروت، 2015

المقدمة

كان يلحّ علي بعض الأصدقاء المخلصين من أوساط دينية وعلمية مختلفة، ولا يزالون، لكي أجمع مقالاتي وبحوثي وأدوّنها بشكل مجموعة موحّدة وأضعها في متناول أيدي القرّاء. وبما أنّ هذه الطلبات قد انطلقت من الالتزام العقدي والدافع العلمي والمحبّة الاجتماعية والمسؤولية الثقافية، فقد وافقت عليها. وفي هذه الفترة قدّمت ستّ مقالات وطرحتها بين أيدي الراغبين في الاطلاع عليها. وسوف أعرضها باقتضاب مختصر في هذه المقدّمة ضمن الموضوعات الآتية في خمسة فصول.

الموضوع الأول: الصلاة والعدالة ميزتا المجتمع القرآني

موضوع هذه المقالة هامّ جدًّا ولا سيّما للشباب الذين يتعرّضون إلى مختلف الهجمات، ومنها العقدية؛ إذ من واجبهم أن يتعرّفوا إلى مسؤوليات نظام الحكم الإسلامي لبناء المجتمع القرآني، وأن يعرفوا ملامح هذا المجتمع، حتى تتّضح لهم النقائص والفوارق بين التوجّهات والتطبيق، ووجود العناصر أو فقدها حتى لا ينسبوا بعض هذا الخلل إلى الإسلام، وحتى لا تطلق ألسنة المعاندين لمعاتبة الإسلام؛ ولذا نجد الإمام عليًّا (ع) يقول:

«إن دين الله لا يعرف بالرجال؛ بل بآية الحق»[1]، وهذا ميثاق علوي حاسم للحيلولة دون أن يكون سلوك بعض من يدّعي الالتزام بالدين والدفاع عنه أو أقاربهم ومن بجانبهم، معيارًا لمعرفة الإسلام؛ حيث إنّهم قد لا يتمكّنون من أداء واجباتهم الدينية في مختلف المجالات، وربّما لا ينجحون، لأي سبب من الأسباب، في أن يظهروا القيم الإسلامية في تصرّفاتهم، ثمّ يلقون تبعات فشلهم في هذا المجال على الدين وتعاليمه وأحكامه.

على هذا الأساس، ومن منطلق العقل والنقل والتجربة، فإنّ معرفة الدين والتحكيم بخصوصه واعتناقه وعدم اعتناقه وفقًا لتوجّهات الأشخاص وسلوكهم الذي لا ينطبق على الإسلام، ظلمٌ للدين والإنسان والمجتمع والثقافة. لذلك يقول إمام البشرية والإنسانية العظيم الذي تتجسّد فيه الحقيقة والهداية: اعرفوا الدين بمعاييره وحقائقه، لا بسلوك الأشخاص وإن كانوا من المعروفين.

وقد ظهرت هذه المقالة التي كنت بصدد تدوينها بهذا الاختصار وقدّمتها إلى المجتمع المعاصر الذي أعتبره محتاجًا إلى مثل هذا النوع من المقالات، وهو بحاجة إلى تحديد الأطر والحدود. وإنّي أعتقد أنّ مثل هذا الموضوع يستحقّ أن يعالج بإسهاب يصل إلى حدّ كتابٍ مستقلّ؛ لكنّ الزمن قصير والواجبات المتبقية كثيرة.

الموضوع الثاني: أحكام الدين وأهدافه

موضوع هـذه المقالة على درجـة الموضوع السابق في الأهمية، وخصوصًا للفقهاء والمجتهدين والمراجع وطلاب الدراسات الفقهية في الحوزات العلمية، وبالأخصّ طلاب مرحلة البحث الخارج وفي هذه الفترة

(1) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج65، ص120.

من الحكم الإسلامي والدولة الدينية. وكذلك موضوع المقالة هامٌّ للذين يزعمون أنّهم يديرون المجتمع في الجانب الاقتصادي والمعيشي. وهو هامٌّ أيضًا في تعريف الشباب بدينهم تعريفًا دقيقًا؛ ذلك أنّ الاقتصاد العليل الراهن والفجوة العميقة بين مداخيل شرائح المجتمع والفواصل الموجودة بينهم، وعدد الحاجات التي لا تجد ما يلبّيها، وهي حاجات معيشية ضرورية. هذه الأمور كلّها تكشف عن البون الشاسع بين الصورة الحالية للمجتمع والمجتمع القرآني. آمل أن يحافظ الشباب على دينهم وأن لا يفقدوا جوهر الإيمان بقراءة الكتب الدينية المناسبة. وقد نُشِرت هذه المقالة للمرّة الأولى في مجلّة «نقد ونظر»، ونُشِر ملخّصها في صحيفة «سلام» اليومية.

الموضوع الثالث: المحاور الضرورية لتطبيق العدالة (52 محورًا)

كنت أرغب في أن تدوّن هذه المقالة في كتاب مفصّل؛ ولكنّ التوفيق لم يحالفني لتحقيق هذه الأمنية. ورأيت أنّه من المفيد نشرها في إطار مقالة، ذلك أنّ موضوعها ينبغي أن يكون محلّ بحثٍ بين ذوي الكفاءات اللازمة، ليعملوا على التأليف والكتابة في هذا المجال. كما ينبغي أن يبادر الخطباء والمحاضرون والمرشدون إلى أداء واجبهم في نشر ثقافة العدالة في المجتمع، كما ينشرون ثقافة الصلاة؛ لتحويل العدالة إلى قيمة ثقافية عامّةٍ في المجتمع، ينادى بها كما ينادى بالأذان. وعلى معلّمي التربية الإسلامية أن يربّوا طلابهم على العدالة منذ الانطلاقة الأولى للتربية والتعليم، وأن يدرجوا القضايا المتعلّقة بالعدالة في الكتب التعليمية ويعلّموها للأطفال والناشئين والشباب، وأن يقيم الأساتذة صفوفًا في الجامعات لهذا الموضوع، وأن يختاروها عناوين للرسائل العلمية والأطروحات الأكاديمية، إلى أن تشرق بمشيئة الله تعالى وعنايته تلك الشمس المضيئة الناشرة للعدالة في الآفاق والأنفس من العالم كلّه، أي الإمام الحجّة ابن الحسن المهدي (ع). فالعدالة

تنظيرًا وتطبيقًا من الواجبات الشرعية والضرورية، وهي مبدأٌ قرآني، لا يجوز أن يهمل أو يترك ومن أجل هذا لا بدّ من اتّخاذ الإجراءات اللازمة لضمان تطبيقه، وحمايته: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[1].

الموضوع الرابع: تعريف العدالة من كلمات الإمام الصادق (ع)

قدّمنا في هذه المقالة تعريفًا للعدالة من كلمات إمامين من الأئمة المعصومين (ع). وهاتان الكلمتان نصّان معتبران وموجّهان وردا في الأصول من كتاب الكافي يمكن أن نعتبرها تعريف العدالة الجوهري. ومن الغريب أنّ مثل هذه الأحاديث لا تنال حظّها من اهتمام الخبراء والمعنيين. وعلى العكس ثمّة اهتمامٌ بالغٌ برؤية الأجانب ونظرياتهم إلى مثل هذه الأمور أو القضايا المتعلّقة بالتربية، ما يدلّ على مظلومية هذه الثقافة، ويدلّ على مشكلةٍ صعبة العلاج!

على كل حال، نرجو أن تفيد هذه المقالة بما تتضمّنه من كلمات المعصومين في تقديم تصوّرٍ إسلامي لتعريف العدالة. ما يسمح بأن يكون ركيزةً أساسًا للانطلاق الاجتماعي والثوري والتربوي والقضائي والاقتصادي والمعيشي. وأن تثير وعي الشباب والجيل الجديد من الباحثين والمثقّفين، وتدفعهم إلى استيعاب قسمٍ من التعاليم الإسلامية المهجورة، وتثير فيهم الحوافز للدفاع عنها، ويؤدّي ذلك إلى توجيه المتنوّرين بالمعنى الصحيح لكلمة تنوير، نحو المحاولات الرامية إلى إنقاذ المجتمع. فهذه المقالة دفاع عن المعارف والتعاليم المهجورة ظلمًا، وقد نُشِرت هذه المقالة في مجلة «نقد ونظر».

---

(1) سورة الحديد: الآية 25.

الموضوع الخامس: مقدّمة في معرفة الدعاء

لا بدّ للمشتاقين إلى الحقائق الاعتقادية ومسارها التكاملي من أن يتذكّروا أنّ الإنسان وعمره ومواهبه في هذه الحياة التي هي مقدّمة لما بعدها، والتي هي غير قابلة للتعويض. لا بدّ لهم من أن يتذكّروا أنّه لاينبغي لهذا العمر ولا لصاحبه أن يكونا ألعوبة بأيدي المفكرين من مختلف العصور والأقطار والشعوب. فهؤلاء، على الرغم من مكانتهم واحترامهم الاجتماعي، لديهم رؤى متعارضة وآراء مختلفة، والإنسان تلميذ في مدرسة الأنبياء. وبعد ختم النبوّة ببعثة سيد الأنبياء، وبعد اكتمال مرحلة النبوة بالتعليم النبوي وبداية دور الوصاية بتعليم الوصي فإنّ المدرسة الإلهية البنّاءة للإنسان والمهتمة بالمجتمع هي مدرسة الثقلين (القرآن وأهل البيت (ع)). والدعاء ميدانٌ من الميادين التي حظيت بنصيب وافرٍ في مدرسة أهل البيت (ع)، وتوفّرت بين أيدينا مجموعة من الأدب الدعائيّ له دورٌ فاعلٌ وبنّاء في بناء الإنسان فردًا ومجتمعًا. ولعلّ في هذه الكلمات ما يلفت نظر القرّاء الأعزّاء إلى أهمية هذه الطريقة في البناء الروحي، وأن لا ينسوا كاتب السطور من دعائهم في مظانّ الإجابة.

الموضوع السادس: الاتحاد الجماهيري الإسلامي

هذه المقالة مقتبسةٌ من كتابٍ بالعنوان نفسه، لم يحالفْني الحظّ لإكماله ونشره. وقد اخترت هذا المصطلح كما أشرت إليه في بداية المقالة قبل عشرين سنة وأدرجتها في الثقافة السياسية للإسلام. وقد تطرّقت في الكتاب إلى بعض الضعف والمشاكل الموجودة في الحكومات الإسلامية. وأكّدت على ضرورة إزالة الطاغوت من ثلاثة جوانب (السياسية والاقتصادية والثقافية)، وحاولت توعية المسلمين إلى واجبهم الجوهري والخلل الموجود في الثورات الإسلامية وطرق تصحيح مناهج الحكومات الإسلامية للوصول إلى الاتحاد الشامل بين المسلمين أو الوحدة الإسلامية، فقدّمت بعض المقترحات لهذا الأمر.

في سنة 1376هـ.ش. اختيرت هذه المقالة من الكتاب المشار إليه ونُشِرت في مجموعة باسم «حماسه اتحاد» (ملحمة الوحدة) مع ترجمتها بالعربية والإنكليزية. وكان بودّي أن تُعرض السبل الكفيلة بتحقيق الوحدة بين الشعوب المسلمة وأن يلفت أنظار المعنيين والمفكّرين المسلمين وأن تكتمل هذه الفكرة بمساعدتهم وأفكارهم.

إنّ بناء المجتمع القرآني متشابكٌ تمامًا مع بناء الفرد بحسب الرؤية القرآنية. ولا يمكن تحقّق كلّ واحدٍ منهما (بناء الفرد والمجتمع النموذجيين بالطراز نفسه) من دون تحقيق العدالة وتنفيذها. فالمقالتان الأخيرتان بما تضمّنتا من محاور يمكن أن يكون لهما علاقة وثيقة مع الأسس المتعلّقة ببناء المجتمع في رؤية القرآن وبتربية الفرد وبناء المجتمع.

وثمّة ملاحظات أودّ أن أختم بها:

1ـ بما أنّ هذه المقالات قد دُوّنت في فترات مختلفة، فإنّ بعض الآيات والأحاديث والملاحظات قد تكرّرت فيها، مع أنّ التكرار أحيانًا كان حسب مقتضى البحث.

2ـ إنّ لهذه المقالات جوهرةً ثورية وهوية واجبية؛ لأنّي أرى كتابة مثل هذه المقالات ونشر التعاليم الإسلامية والإلهية واجبًا. وقد أشرت إلى هذا الأمر في مجالات أخرى مثل تقرير الحياة، الكلمة الخالدة، الثورة الخالدة.

3ـ نظرًا إلى الأوضاع الراهنة ومسار الأمور حسب ما سمعته من الأساتذة الملتزمين والواعين بالجامعات وما لمسته نتيجة التواصل مع الواقع، يمكن أن أقول إنّ قائمة الواجبات تتصدّرها اليوم ثلاثةُ أمور لا بدّ من أن تُدرس بشكل عميقٍ وشاملٍ وسريعٍ، وهي:

أـ الحفاظ على معتقدات الأمّة.

بـ الحفاظ على الشباب .

جـ إنقاذ الإنسان المستضعف .

ولا ينبغي لي ولا لغيري ترك هذا الواجب ما أمكن ذلك، وأرجو من الله أن يكون في أدائي هذا الواجب وتحمّل أعبائه ما ينفع المسلمين به.

4ـ لا يريد الجيل الشابّ والمفكّرون الواعون إلا خدمة الخلق، وكانوا يتوقّعون من الثورة الإسلامية خيرًا. ومن جانب آخر فقد حاولوا التعرّف إلى معايير الإسلام الثورية استنادًا إلى مصادر الإسلام الأصيلة، وهي الكتاب والسنّة، وإنّي أنصحهم بقراءة هذه المقالات وقراءة ما أشرت إليه من أعمالي العلمية قبل قليل.

5 ـ ومن باب شكر النعمة تجدر بي الإشارة إلى بعض ما وصلني من ملاحظات تكشف عن أنّ في بعض ما كتبت إسهامًا في توضيح الوجه الحقيقي للثورة الإسلامية. فأشكر الله تعالى على أنّي لا أهدف إلا إلى إعلاء الحقّ من دين الله، وإنقاذ المجتمع ودين الحقّ.

الفصل الأوّل

بناء المجتمع رؤية قرآنية

1ـ الصلاة والعدالة: ميزتا المجتمع القرآني

لو أدّى مسار الأحداث وتوالي الأمور في مجال السلطة واقتناص الفرص، ولو أدّت ـتطورات الحياة غير المحسوبة بعنايةـ وجرت أمور المجتمع والأفراد، بغير الطريقة التي رسمها الإسلام، إلى إشاعة الرأسمالية (وهي التكاثر وفق المصطلح القرآني)، ولو انتهى أمر المجتمع إلى انتشار الفساد الذي يطيح بالمجتمع (الترف والرفاهية) والإسراف (حسب المصطلح القرآني)، لو حصل مثل هذا الأمر لترتّبت على العلماء والمفكّرين واجباتٌ جديدة، ولا سيّما أولئك العارفين منهم بشؤون الثورة، والملتزمون منهم بالفكر الإسلامي. ولا ينبغي أن يكون هذا الأمر مستهجنًا، وذلك لأنّ الموقف الثوري لا ينسجم مع كلّ تطوّر، ولا يسمح بقبول أي تغير.

فاتّخاذ المواقف المبدئية المعتمدة على أسس «الدين الحقّ» والوعي الاجتماعي الشامل للإسلام لا يتغير أبـدا؛ لأنّه من الواضح أنّ اتّخاذ المواقف التي يراعى فيها الزمان وظروفه ومعرفة أحكام الدين وفق أهدافه المرسومة لا يؤدّي بالضرورة إلى التغير في أحكام الدين ومواقفه، على

مستوى الجوهر حتّى لو تغيرت الأساليب. وإنّ ضرورة التصدّي للظالمين ومواجهتهم، ومواجهة العابثين كلّهم والمستبدّين بأمور العالم من واضحات القيم الإسلامية التي لا تقبل التغيير. وهذا الواجب يبقى ثابتًا ما دامت ظروفه وشروطه متوفّرة. فما يطرح نفسه هنا وليس مطلوبًا ولا سيّما في الثورات، هو التضحية بأهداف الثورة، فأي تضحية بأهداف الثورة أو ما يحتمل كونه تضحيةً تدعو إلى إعادة النظر في السياسات والإجراءات المتّبعة. ولا بدّ من إعادة تفسير الأسس والمبادئ، وأن يعمل على نشر الوعي بها بين أبناء الجيل الجديد، كي لا ينسب ذلك الخلل إلى العقائد الدينية نفسها، وكي لا تُخدش قداسة الدين. كما من أجل إعادة تبيين الأهداف الإنسانية والإسلامية والقرآنية الجعفرية للثوريين. وإنّ التعبير عن هذه الحقائق وتكراره مبادرة ضرورية للدين والتاريخ والبشرية. فإذا حصل نوع من الابتعاد عن الثورة وأهدافها وتحقيقها لأي سبب كان، فلا بدّ من التحذير والإنذار على نحو الوجوب. وقد ظهرت اليوم أهمّية هذا الأمر أكثر من ذي قبل.

في مسار تكوّن الثورات ثمّة أشخاص على اختلاف مستويات المسؤوليات التي يتصدّون لها، يتّخذون قرارات منسجمة مع أهداف المعارضين للثورة، وذلك نتيجة عدم معرفتهم، أو بسبب قلّة كفاءتهم، أو انحرافًا منهم وميلًا إلى مكاسب شخصية، واستغلال للمناصب والنفوذ. فهؤلاء المشار إليهم وانطلاقًا من طموحاتهم ومصالحهم الخاصّة، وفي بعض الأحيان بالاستناد إلى ذرائع واهية وتبريرات غير مبرّرة، يستغلّون الفرص، ويحظون بثروات طائلة من دون أي جهود في مقابلها، ولا لعامّة الشعب والثورة إلا المشكلات، وذكرى الثورة وأسماء الشهداء الأبرار. هذه التصرّفات تزعزع المعتقدات الدينية عند بعض الشرائح الاجتماعية شيئًا فشيئًا، وتشجع بعضهم على تشويه إيمان الناس وهزّ معتقداتهم وخصوصًا الجيل الثاني من أبناء أولئك الذين كانوا يقبّلون أقدام أمّهاتهم ليسمحن لهنّ بالذهاب إلى جبهات القتال، وأولئك الذين كانوا يتوسّلون بكلّ وسيلة إلى قائدهم العسكري ليسمح لهم باقتحام حقول الألغام ليفتحوا الطريق لسائر

المجاهدين حتّى لو تحوّلوا بعد ذلك إلى دقيق. وفي المقابل ثمّة من هو غارقٌ في رؤاه المتدنية، ويتحين الفرصة تلو الأخرى، تاركًا شعارات الثورة وطلب النصرة «هل من ناصرٍ ينصرني؟» تتردّد في الآفاق من دون أن تجد أذنًا صاغية.

في هذه الأوضاع ما هو واجب حرّاس القيم؟ ما هي مسؤولية المضحّين بمصالحهم والرساليين المجسّدين لشخصيات كأبي ذر الغفاري وغيره من الذين كان لهم دور ريادي منذ الانطلاقة الأولى للثورة وقبلها، وبذلوا جهدًا جهيدًا في الصحوة والإيقاظ دون أي تراجع وانسحاب. وقد ضحّوا بملذّاتهم ومصالحهم لأجل الواجب وأداء التكليف، وبقوا صامدين في دعم الثورة والدفاع عنها؟ على هؤلاء الثوريين الصادقين والإسلاميين الواعين الملتزمين أن يؤدّوا دورهم في توعية المجتمع في مجال الأسس والمبادئ وتبيين القيم بحسب ما تقتضيه مصلحة المجتمع ومصالحه وظروفه وتتطلّبه جوهرة الثورة. وعليهم أن ينشروا فكرة بناء المجتمع الإسلامي في ضوء القرآن وأن يذكّروا الناس بالقيم المنسية لهذا الكتاب العظيم. تلك القيم التي كانت تجري في عروق الثورة في بدايتها وكانت هي الرافعة التي أوصلتها إلى الانتصار، عليهم أن يذكّروا الناس بالقيم الدينية التي ضحّوا من أجلها ويحافظوا عليها حية في نفوس الناس.

تتّضح أهمية هذا الأمر عندما نلاحظ أنّ الشكّ يضرب في أكثر من موضع، ويتجاوز السطح إلى الأعماق في بعض المواضع. وهو يرسخ الإحباط وسوء الظنّ في العقائد عند جماعات لا تتحلّى بالوعي الكافي بمبادئ القرآن وأسسه، ومثل هؤلاء عرضة للانحراف على صعيد السياسة والعقيدة، وهم يمثّلون الخاصرة الرخوة التي يمكن أن ينفذ منها العدوّ والمستعمر. فقد حاول الاستعمار استغلال الفراغ الروحي والفكري الموجود عند الشباب، وتعبئته بما يشبه الفكر والفلسفة.

والحل أن نعود إلى البداية وأن نعيد بناء المجتمع وركائزه وأن نلبّي نداء

الثورة. في البداية كان الحديث عن اختلال أوضاع الشعب وكان الهدف هو إنقاذ الشعب من تلك الأوضاع المرعبة، بواسطة الثورة الإسلامية، بهدف بناء مجتمع قرآني يتميز بنظام هادف لتطبيق العدالة والاقتصاد المبني على القسط.

إنّ معنى النظام الذي يبغي العدالة واضحٌ، والمجتمع المبني على القسط كذلك أيضًا. توجد عشرات الكتب المتضمّنة للروايات والأحاديث المعتبرة والموجّهة في الاتجاه القرآني، وهي تبين ملامح المفهومين المذكورين أعلاه وومواصفاتهما بجدارة وتفصيل؛ بحيث لا يمكن استبدالها بغيرها ولا الاستغناء عنها في تبيين هذين المفهومين. وهذا هو سرّ حفظ القرآن في العصور والأجيال وتعاليمه كعين الشمس: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1]. وعليه لا ينبغي بل لا يجوز أن نقدّم تصوّرنا أو تعريفنا الخاصّ المنتج من بنات أفكارنا للمجتمع القرآني.

وبشكل عام، فإنّ الهدف من الثورة الحقيقية هو تحطيم الهياكل الراهنة للبناء الاجتماعي، بوصفها أبنية فاسدةً، وإعادة بناء المجتمع مجدّدًا وفق الأسس التي تتبنّاها الثورة. بل إنّ المجتمع الفاسد في الحقيقة ليس مجتمعًا؛ بل مجموعة من الأفراد تتزاحم مصالحهم في بقعة جغرافية محدّدة؛ وذلك أنّ المقصود من الاجتماع الإنساني أن يكون محلًّا لتطوير الاستعدادات البشرية وتوفير سبل النموّ والارتقاء للجميع، كما يهدف إلى رفع المعيقات التي تحول دون تحقّق مثل هذه الأهداف. وإذا لم يتّصف المجتمع بهذه الأوصاف يكون مجرّد تراكم إنساني، لا يسمح بتحقّق الإنسانية ولا الاجتماع الإنساني بالمعنى الصحيح.

وقد يقال إنّ مصطلح المجتمع يطلق على مثل هذا التجمّع المذكور أيضًا؛ لكنّه مجتمع فاسدٌ وعاجزٌ عن النموّ. هذا الكلام صحيح حسب المصطلح

---

(1) سورة الحجر: الآية 9.

المتداول في فلسفة الفارابي الذي استخدم مصطلح المدينة للتعبير عن أنواع متعدّدة من المدن ووصفها بصفات مختلفة مثل المدينة الضالّة والفاسقة. وأمّا المجتمع بالمعنى الصحيح وبحسب الفلسفة الإنسانية الصحيحة، فهو مجتمع يكون بيئة صالحة للتطور والارتقاء الإنساني. ومن الواضح أنّ بناء المجتمع الإنساني هو أشرف الأنشطة والإنجازات التي يمكن أن ينجزها الإنسان عبر التاريخ. ولم يكن هذا في المستقبل فحسب، بل هو أيضًا في عصرنا الراهن، وسوف يكون كذلك في المستقبل. والمذاهب الفكرية والمدارس الاجتماعية المحترمة كلّها، تتضمّن مبادئ وأسسًا لبناء المجتمعات. كما إنّها تعدّ حاكمية مجموعة من القيم التي تؤمن بها معيارًا للحكم بتحقّق المجتمع الذي تهدف إلى بنائه.

القرآن الكريم من الكتب المهمّة والأساسية في بناء المجتمعات، وهذا أمرٌ شهد به المطّلعون والخبراء. وقد أشار القرآن إلى هذا الهدف (بناء المجتمع) مرارًا في سوره وآياته. وقد خاطب الله تعالى في القرآن الكريم المؤمنين مرّات وخاطب الناس مرّات كثيرة، ولا شكّ في أنّ الهدف من هذا الخطاب لم يكن مجرّد الإشارة إلى جماعات بشرية وتكتّلات إنسانية. من جهة أخرى، من الواضح أنّ المطلوب في الثورة الإسلامية التي تهدف إلى تحطيم المجتمع الفاسد السابق، هو أن يعاد بناء المجتمع الصالح الجديد وفق المبادئ القرآنية من الجهات كلّها، لا التأكيد على قسم منها وإهمال الأقسام الأخرى. ومن هذا المنطلق، نلاحظ أنّ الرسول الأعظم (ص) أرسل معاذًا بن جبل إلى اليمن ليبني مجتمعًا قرآنيًا وفق تعاليم خاصّة، فقال له: «وأظهر أمر الإسلام كلّه صغيره وكبيره»[1].

وبناءً على هذه الأسس المؤكّدة، فالمجتمع القرآني (الذي يليق به هذا الاسم والوصف) هو مجتمع تنسجم جوانبه جميعًا مع مبادئ القرآن الكريم،

---

(1) الحرّاني، **تحف العقول**، ص26.

وهو مجتمع يواكِب القرآن في أهدافه وغاياته، ويبنى بحسب القرآن والسنّة من حيث الأبعاد الآتية:

- السياسة.
- الحاكمية والسلطة.
- الاقتصاد والمعيشة.
- سلامة السوق والتجارة.
- عدم التمييز والتفاوت الطبقي غير المبرّر بين الناس.
- القضاء وتواضع القضاة وآدابهم.
- زهد العلماء ونزاهة الوعّاظ.
- عدالة أئمة المساجد والتزامهم وتقواهم.
- السلوك الإنساني لرجال الأمن والعسكر.
- سلامة السلوك وصحّته عند الموظّفين والعاملين في الإدارة.
- إلغاء التكاثر والمتكاثرين من المجتمع.
- محو الترف والإسراف.
- القضاء على الفقر والحرمان من حياة مختلف شرائح المجتمع.
- القضاء على المحسوبية واستبدالها بالضوابط.
- الحفاظ على كرامة الإنسان.

- وبكلمة مختصرة: ظهور آثار قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾، وتجلّي قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ في ذلك المجتمع وفي قضائه واقتصاده وغيرهما من الشؤون والمجالات.

فإذا أردنا أن نلتزم بالقرآن والإسلام في تعريف المجتمع القرآني

وتطبيقه، فهل يمكن أن نكتفي بأقلّ من هذه الأمور؟هذا إذا أردنا، كما هو مطلوب ومتوقّع، الوفاء للقرآن والإسلام في مقام العمل والتطبيق.

ولا أظنّ أنّ هذه العناصر التي أُشير إليها بإيجاز وسرعة، تحتاج إلى الاستدلال عليها وإثباتها للمسلمين الواعين. وإذا كان لا بدّ من الاستدلال فنكتفي بالسؤال الآتي: هل قال القرآن غير ما أشرنا إليه، وأوجزناه؟ وهل ورد في السنّة النبوية الشريفة غير ما تقدّم؟ ثمّ ألا تكفي هاتان الآيتان المظلومتان والمهجورتان، للاستدلال على المضامين المشار إليها أعلاه؟

فالجميع يعرف أنّ كلّ شيء موجود في هذا العالم (طبيعيًّا كان أم مصنوعًا بأيدي البشر) له مواصفاتٌ وميزاتٌ وآثارٌ وعلاماتٌ يعرف بها ويعرفه الناس بواسطتها، فإذا لم تتحقّق تلك الخصائص في شيء لم يصدق عليه اسم الكائن المتّصف بتلك الصفات المحدّدة.

على أساس هذه المقدّمات المختصرة نستنتج أنّ كلّ مجتمع يبتني على أسس وقيم، ويتميز بمواصفات وميزات يمكن معرفته بها. وعلى أساس هذا المبدإ العلمي والتجريبي يمكن أن يحكم بأنّ ذلك المجتمع هو مصداقٌ للمجتمع الموصوف بالصفات المحدّدة المذكورة.

ويصدق هذا الحكم على العالِم كذلك، فيمكن تمييز وصف العالِم بأنّه إسلامي إذا توفّرت فيه المعايير التي وردت في القرآن الكريم والأخبار الواردة عن أهل البيت (ع)، ومن هذه الصفات: العلم والعمل، وسائر الصفات الأخلاقية كالزّهد والوعي ومعرفة الزمان، ومحبّة الناس.

ومن الجدير بالالتفات أنّ القرآن الكريم يدعو والأحاديث الشريفة تندب إلى تقييم العالِم قبل اتّباعه بمجموعة من المعايير وردت في القرآن والأحاديث؛ وحدّدت للعالِم مجموعة من الصفات الأخلاقية والمعرفية. ويمكن تعميم هذا المبدإ على القضاة والخطباء والدعاة إلى الدين.

وهذا مما يعرّفنا بالمكانة التربوية السامية للقرآن والسنّة، وينمّ عن القيمة السامية التي يمنحها الإسلام لتربية الإنسان وحياته وغاياتها، فإذا كان الأمر

بخصوص العلماء المجتهدين الذين تربّوا على أيدي الأساتذة البارعين دقيقًا إلى هذا الحدّ، فالأمر بالنسبة إلى الآخرين أوضح. نعم؛ فالإصغاء إلى وصايا العلماء أو مدّعي العلم والمعرفة وقراءة كتبهم والإيمان بمعتقداتهم ومتابعة سلوكهم وتصرّفاتهم له معايير جادّة ودقيقة؛ إذ لا يتمكّن كلّ عالم من بناء الإنسان والمجتمع على أساس المعايير الأصيلة للقرآن وتعاليم الأوصياء، ويتوصّل إلى التطبيق الموضوعي للإسلام في مجال الفرد والمجتمع والسياسة والاقتصاد والقضاء والثقافة والتربية والشؤون العسكرية والدفاعية.

ولا بدّ من أن يُعمل الإنسان ذكاءه؛ لكي يحافظ على معتقداته ويقدر على التمييز بين الصحيح والخاطئ من القيم وتطبيقاتها، ويعمل على تعديل الباطل منها ليطابق الحق، وأن يكون الحقّ معيارًا له في تقييم كلّ شيء وكلّ شخص، وأن يكون كالجبل الراسخ، وأن يدافع عن الإسلام ويحافظ عليه ملتزمًا بالقرآن الكريم، وأن يشعر هذا الإنسان بالمسؤولية الأخلاقية تجاه الرسول (ص). هذه هي الصلابة الاعتقادية للإنسان المؤمن والملتزم، وهذه هي الرسالة الأمانة التي حمّلها الإسلام للمؤمنين وهي أمانة حراسة الإسلام والدفاع عنه في عقول الناس وأذهانهم: حيث قال (ص): «كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته»[1].

وأين حال المسلم الثابت كالجبل الذي لا تهزّه الرياح، من ذلك الذي يميل مع كلّ ريح؟! والأمواج الفكرية وشبه الفكرية، لا تبني فردًا فضلًا عن أن تبني مجتمعًا، وما هي إلا كالسيل الذي يجرف التربة ولا يسقي الزرع، ولا ينبته.

يعرف المطّلعون على كتاباتي المتواضعة، على مدى أربعين سنة، أنّي دافعت وأدافع عن صراط الحقّ، وأحذّر من الابتعاد الفكري أو العلمي عن

---

(1) علي نمازي، **مستدرك سفينة البحار**، ج4، ص169.

هذا الصّراط (وهو الثقلان: القرآن وتعاليمه، والسنّة النبوية وتراث الأوصياء (ع))؛ ذلك أنّ الانحراف عنه يسبّب الإعراض عن التعاليم الإلهية الخالدة، من قبل قليلي الإلمام بالمعارف أو المخدوعين بغوايات التيارات الفكرية الأخرى، ويفضي إلى الخوض في لجج الأفكار والرؤى المستوردة، والفلسفات الغربية ومثيلاتها والآراء الفارغة من كلّ مضمون عن التي ينادي بها هذا أو ذاك.

وأنا أعتقد بالتسوية على مستوى النتيجة بين الانحراف الناجم عن سوء العمل، والانحراف الناتج عن التضليل الفكري؛ وذلك لأنّ الأمرين يؤدّيان إلى انحراف الشباب والجيل الجديد عن الأهداف المرسومة له من قبل الله تعالى. ومع الأسف الشديد، فإنّ كلا الأمرين موجود في مجتمعنا المعاصر. ومن هنا أجدني حريصًا على أن لا أصبّ الماء في طاحونة الفساد.

بعد هذه المقدّمات المختصرة التي كان لا بدّ من عرضها، أذكّر بأنّ المجتمع القرآني هو المجتمع الذي يُبنى على أسس ومبادئ قرآنيةٍ له ميزاتٌ ومواصفاتٌ لا يمكن وسمُ أي مجتمعٍ بأنّه قرآني إذا لم تتوفّر فيه هذه الخصائص والميزات. ومن هذه الأوصافِ؛ بل من أبرزها، بحسب ما يكشفه لنا القرآن الكريم نفسه وأحاديث الرسول (ص) وتعاليم الأوصياء (ع)، وهم المبينون للحقائق السماوية، من أهمّ هذه الخصائص، أمران هما الصلاة والعدالة.

منذ أعوام وأنا أشعر بأنّنا بحاجة إلى بيان مواصفات المجتمع القرآني وتقديمها إلى الناس وخصوصًا الشباب منهم، حتى إذا وجدوا خللًا أو ضعفًا في المسؤولين أو تصرّفاتهم في المجال الاقتصادي أو السياسي أو القضائي أو نمط حياتهم وحياة حواشيهم، وحياة العلماء وأقاربهم، أو حدثت مبادرة مضادّة لبناء المجتمع القرآني أو استغلّ بعضٌ الفرص وانتهزها للحصول على الأموال الطائلة، وتسنّم المناصب العالية... حتى إذا وجدوا ذلك كلّه لا ينتهي بهم الأمر إلى اتّهام القرآن والسنّة النبوية وتعاليم الأوصياء بالظلم

أو بتجويزه، وحتى لا تشوّه القيم الإلهية ولا يُفقد الشباب قليلو الخبرة والمعرفة بصحيح العقائد الدينية، وحتى لا يهدم بعض المتآمرين من الداخل والخارج أسس عقيدتِهم. وبكلمة واحدة: حتى يميز بين الدين وغيره، فإذا لم ينسجم التطبيق الديني في السياسة أو القضاء أو الاقتصاد أو المعيشة مع الخطوط العريضة المرسومة في الإسلام لا نجعل ذلك على حساب الدين، ولا نسمح للعاملين المذكورين أن يهزّوا قوّة الإيمان أو يضعفوها؛ لأنّ صمود المجتمع ومبعث اعتزازه هو ركيزته الاعتقادية التي تقف في مواجهة التصرّفات الخاطئة التي تصدر عن بعض الحكّام؛ حيث إنّ ثبات العقيدة الدينية عند الناس، هو الذي يسمح لهم بأداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتّى في مواجهة أخطاء الحكّام المحسوبين على الدين.

إنّ آيات القرآن الكريم، وكلمات الرسول وسيرته العملية، وما ورد من نهج البلاغة وسيرة أميرالمؤمنين علي (ع)، وخطب سيدتنا فاطمة (ع)، وكلمات الإمام الحسين (ع) في كربلاء، ونداءات الصحيفة السجادية، وغيرها من تراث الأئمة المعصومين (ع)، كلّها بين أيدينا. ومع ذلك نجد مع الأسف أنّ كثيرًا من أبناء مجتمعنا لا يعرفها، أو ليس بينه وبين مضامينها تلك العلاقة الوثيقة.

لقد تطرّقت إلى هذا الأمر في موسوعة «الحياة»، وتُرجمت هذه الموسوعة إلى الفارسية، كما دُقّقت من الجزء الأوّل إلى الجزء الخامس، والرجاء أن يترجم الجزء السادس وما يليه من الأجزاء. وقد ذكرت في غيرها من مؤلّفاتي مجموعة من الآيات والأحاديث البنّاءة للفرد والمجتمع والتي تتضمّن نقاطًا هامّةً، وكنت أهدف منها إلى الأمور الآتية:

- نشر هداية الثقلين (فكلٌّ من القرآن الكريم والسنّة النبوية المعتبرة والمتواترة قد حصر الهداية والسعادة الفردية والاجتماعية، الدنيوية والأخروية فيهما، مضافًا إلى ما يحكم به العقل بالحكم نفسه).

- إحياء أمر أهل البيت (ع)، وهو تعاليمهم في بناء الفرد والمجتمع

ورفع مهجورية هذه التعاليم ولو بقدر يسير.

- تحذير القائمين بالحكم والحكّام.

- إنذار الرجعيين في نمط تفكيرهم.

- لجم ألسنة أولئك الذينَ يدّعون أنّ سلوكهم العملي مطابقٌ لقواعد الشريعة، ويدّعون إمكان معرفة الإسلام من سلوكهم هم. ويستندون إلى الإسلام لتبرير أخطائهم التي يرتكبونها.

- الحفاظ على قوّة الإيمان لدى الشباب.

إنّ اكثر الشرائح مظلومية في المجتمع هي شريحة الشباب؛ وذلك بسبب فقدهم التجربة المناسبة والاحتراف في تقويم الأحداث السياسية والاجتماعية والهجمات الثقافية والعقائدية بمختلف أشكالها. فهم لا يملكون الحنكة الكافية التي تسمح لهم بمعرفة الأهداف السياسية التي يعبّر عنها بأسلوب ثقافي، حتى يتمكّنوا من الوقوف في وجه العواصف التي تهدّد جوهر إيمانهم، وحتى لا يقعدوا عن العمل الصالح بما هو أفضل رأس مال لهم في حياتهم. ومن جهةٍ أخرى، لا يتوفر دائمًا لهؤلاء الشباب قادةٌ ذوو كفاءات يحصلون من خلالهم على معلومات عن الأسس والمبادئ الدينية الأصيلة، المعتمِدة على النصوص المعتبرة، تمكّنهم من أن يستوعبوا العلاقة الوثيقة بين الدين وأهدافه، وبين أهداف الدين وأبعاده، وبين أبعاده وجذوره، وبين جميع هذه الأمور مع حقيقة الإنسان.

كان واقع الإنسان وحقيقته، وما يزال، جوهرةً ثابتة على الرغم من تنوّع امتداداته الوجودية واختلافها الجزئي:

- الوجود الإبداعي (1).

- الوجود في مرتبة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (2).

- الوجود في الأصلاب (3).

ـ الوجود في الأرحام (4).

ـ الوجود الدنيوي (أي المرتبط بحركة النجوم والكواكب) (5).

ـ الوجود الدنيوي بحسب الزمان الشعوري والإدراكي (6):

1ـ المعرفي الصحيح (الحق) .

2ـ المعرفي غير الصحيح (الباطل).

3ـ السلوكي الصحيح (المطابق لدين الله).

4ـ السلوكي الخاطئ (المطابق للأهواء والميول) .

ـ الوجود البرزخي (7).

ـ الوجود في القيامة بالحشر الصوري (8).

ـ الوجود في القيامة بالحشر السرائري (9).

ـ وأخيرًا الوجود الأبدي الخلودي (10):

1ـ بالبقاء الإنعامي.

2ـ بالبقاء الإكرامي.

3ـ بالبقاء التعذيبي المنقطع.

4ـ بالبقاء التعذيبي المستمر.

يعرف كلّ من له إلمام يسير بالدين ومعارفه أنّ (الدين الحق والعمل الصالح): ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ لهما أثر محتوم على المصير الأبدي والنهائي للإنسان. ومن هنا ينبغي على الإنسان العاقل أن يهتمّ بأمر الدين، وأن يفكّر في أمر خلوده وقبل الخلود في المراحل التي سوف يعبر منها ويمرّ فيها أو تمرّ عليه، ولا يتوانى في الحفاظ على الدين والعقيدة وأداء الواجب، وأن يحاول الدفاع عن دينه والتزاماته الدينية تجاه العواصف المختلفة مهما كانت.

على أي حال، ومن منطلق هذه الحقائق التي أشرت إليها في مؤلفاتي الأخرى أيضًا، فقد خطر ببالي قبل بضع سنين أن أدوّن مجموعة باسم «الصلاة والعدالة» بما هما ميزتان للمجتمع الإسلامي، وأن أقدّمها للمجتمع المعاصر الذي أعيش فيه، وأن أبين فيها أنّ الدين لا يقتصر على الألفاظ والمحاضرات؛ بل هو كما على حدّ ما رُوِي عن الإمام الصادق (ع) عملٌ قبل أن يكون أي شيءٍ آخر، بل هو عملٌ بجميع جوانبه، وليس عملًا ببعضه وترك بعضه الآخر. وقد ورد أيضًا في الأخبار الشريفة أنّ: «الصلاة عمود الدين»، كما ورد عن العدل: «العدل حياة الأحكام».

في الحقيقة، «العدل حياة الأحكام» تعني أنّ العدل حياة الصلاة والعدل حياة الزكاة و... فالصلاة بمقدّماتها وشروطها إنّما تكون حيةً بين مختلف الشرائح والطبقات الاجتماعية بشكل حقيقي بالعدالة التي من خلالها يتمكّن الجميع من الحصول على حقوقهم الأساس ويؤدّون الصلاة بالطهارة اللازمة والتركيز المعنوي، حيث تتوفّر الفرصة لأدائها بفراغ بالٍ وهدوئه.

من هنا، فالحديث المروي عن علي (ع): «العدل حياة الأحكام» هو إعجاز في عرض معيار معرفة حقائق الحياة المادية وجوهر الإنسان وجوهر الأحكام الدينية.

والتجربة تؤيد ذلك، حيث إنّ الإعراض عن الواقع لا يغير شيئًا منه، كما إنّ الأخذ بجانب دون الآخر يسبّب الفشل في الجانبين (الصلاة والعدالة)؛ إذ إنّ ترك ما يأمر به القرآن والسنّة والأحاديث -وهو الاهتمام بإقامة الصلاة، وتطبيق العدالة، ومكافحة الفقر والتكاثر، والقضاء على الفساد القضائي والظلم المعيشي، والإقبال على بعض الأحكام غير المعارضة للأثرياء والمترفين من الطبقات الاجتماعية، وعدم الاهتمام ببعض الأحكام المهمّة حتى على مستوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- يؤدّي إلى ما نشاهده اليوم. فجيل الشباب الرشيد في عصر الثورة المطالِب بتحقيق العدالة ومكافحة التكاثر والتميز والترف والإسراف والتمتّع الظالم، عندما

يفقد هذه القيم القرآنية على أرض الواقع وفي مقام التطبيق يشعر بخواء أمانيه السابقة ووهمية آماله وطموحاته التي كان يرجو تحقّقها من خلال الثورة وبواسطتها، فتأخذه الأمواج الفكرية الموصوفة ادّعاءً بأنّها تنوير، ويصبح ضحية مظلومة في هذا المضمار. وتجده بعد يأسه المذكور يصغي إلى ناعقٍ، ويصدّق كل الكلمات التي تنسجم مع طموحاته القديمة التي لم يشاهدها متلبّسة بلبوس التحقّق في ظلّ الثورة التي كان وقودًا لها ومحرّكًا. وهذا الخلل هو أوّل مراحل الاهتزاز العقدي، ولو أنّ تلك الوعود الثورية والقرآنية تحقّقت لما أصغى إلى أي صوت مخالفٍ للشعارات التي آمن بها وضحّى من أجلها.

بلى، كنت بصدد أن أبين في تلك الرسالة أنّ تحقيق العدالة من الأركان الأساسية للمجتمع القرآني، وحسب المصطلح المنطقي والفلسفي من «الفصول الجوهرية» التي تميز هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات، وعندما تكون العدالة فصلًا فهذا يعني عدم تحقّق المجتمع القرآني دون تحقّق تلك الصفة التي يسمّيها الفلاسفة والمناطقة بـ«الفصل». أليس المجتمع القرآني هو ما يرتضيه الله وما يعطيه عزّ وجلّ تلك المكانة الراقية؟ ألم يروِ علي (ع) عن النبي (ص) قوله: «لن تُقدّس أمّة لا يؤخذ للضعيف فيها حقّه من القوي غير متعتعٍ»[1].

إنّ القضية الرئيسة للإنسان في هذه الحياة التي هي مقدّمة للحياة الآخرة ولا بدّ من أن تُطابق دين الله ومعايير القرآن الكريم حتى تؤدّي إلى فلاح الإنسان وسعادته في تلك الحياة الآخرة، إنّ القضية الرئيسة هي الإيمان، كما إنّ المشكلة الرئيسة للإنسان التي تمنعه من الرشد والتطوّر في الاتّجاه الصحيح وتؤدّي به في نهاية المطاف إلى السعادة هي الظلم. ولا في إعاقة الظلم ومنعه من التطوّر بين الظالم والمظلوم؛ لذلك يدعو القرآن الكريم البشرية كلّها إلى الايمان بالله وتطبيق العدالة. وبما أنّ الحظ لم يحالفني

(1) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج3، ص102.

في تدوين ذلك الكتاب بشكلٍ مستقلٍّ للكشف عن الميزتين الأساسيتين للمجتمع القرآني ـ وهما الصلاة والعدالة ـ فإنّني أكتفي بهذه المقالة في هذا الكتاب التي أدوّنها للغرض نفسه.

قيل عن الصلاة الكثير من الكلام (على الرغم من أنّ الكثير قد بقي ممّا يمكن أن يقال، عن هذا السرّ العظيم للتقرّب، وعن هذه النعمة العظيمة والتفضّل الإلهي المهدى إلى الناس، ومعراج اللقاء وآفاق الاستغراق في نور الله و... إلخ)، ومن هنا يمكن القول إنّ الصلاة ليست مهجورة ولا مظلومة بمستوى الظلم الذي نال العدالة. لذا أرى أنّ العدالة وهي الركن الثاني للمجتمع القرآني أحقّ بالشرح والتوضيح من الصلاة ومن هنا أوليها في مقالتي المزيد من الاهتمام.

2ـ أحكام الدين وأهدافه

البحث عن الاجتهاد ينبغي أن يتّسع إلى الحدود التي يعمل فيها الاجتهاد نفسه، وهذه الحدود هي حدود المجتمع الإنساني وقضاياه. وعندما يبحث عن الاجتهاد في حدود أضيق من هذه الدائرة، فإنّه سيبقى ضيقًا ومحدودًا؛ إذ إنّ الاجتهاد رسالةٌ وتحديدُه بأطرٍ ضيقة ينفي رساليته.

بلى، إنّ الاجتهاد المحدود لا يبني المجتمع. وربّما يسأل هنا: هل يجب على الاجتهاد أن يتولى بناء المجتمع؟ وهل هو علمُ اجتماعٍ حتى يتولى مثل هذه المهمة؟ وفي الجواب عن هذين السؤالين نقول: لا، إنّه ليس علم اجتماع ولا هو معرفة نظريةٌ بالمجتمع؛ بل هو أعلى من ذلك بكثير فهو الذي يبني المجتمع ولا يكتفي بدراسته النظرية.

هذا، وقد كانت أكثر البحوث المعنية بالاجتهاد تدور حول أحكام الدين دون النظر إلى مقاصده وغاياته، وأنا أريد في هذه المقالة البحث عن الاجتهاد من زاوية الأهداف، ولو كان ذلك باختصار وإيجاز.

منذ أن كتب السيد جمال الدين الأسد آبادي (جمال الدين الأفغاني)

رسالته إلى الميرزا الشيرازي وطلب منه أن يسهم في الإطاحة بالحكم القاجاري، وأن ينقذ الشعب الإيراني المسلم من مخالب البلاط الفاسد ورجاله التافهين العملاء، أتّضح أنّ الاجتهاد قد دخل مرحلة جديدة ووطئ أرضًا كان يجب عليه أن يطأها، وأن تكون له فيها مهمّة ودور، وهو دور مكافحة الاستعمار في داخل الأقطار الإسلامية ذلك الاستعمار الذي يتجلّى في الاستبداد. ليس الاجتهاد عندنا حكرًا على الحوزات العلمية ودروس مرحلة الخارج؛ لأنّ البحوث الاجتهادية في هذه المجالات تسمح بظهور مراجع التقليد الذين يتولّون مسؤولية الحياة الدينية والاجتماعية وتوجيه الشعوب المسلمة. والأمّة الإسلامية تسير في ركاب هؤلاء المراجع، فإذا كانوا غارقين في التاريخ والماضي السحيق يعودون بالأمّة إلى التاريخ، وإذا كانوا يواكبون التطوّر فإنّ الأمّة أيضًا تسايرهم في تطوّرهم وتسير إلى جانبهم أو وراءهم.

من هنا، فإنّ البحث في الاجتهاد من زاوية مقاصد الدين وغاياته يعدّ من القضايا المصيرية في هذا المجال. ولا بدّ من البحث عن أحكام الدين من خلال غايات الدين وأهدافه ولا يجوز غضّ النظر عن هذه الأهداف والغايات عند محاولة الفقيه استنباط الأحكام. وأريد أن أطرح هذا البحث في هذه الفترة الزمنية الحسّاسة؛ لأثير حماسة الخبراء والاختصاصيين الملتزمين بمتابعته.

إنّ أهداف الدين هي غاياته، وأحكامه مقدّماتٌ للوصول إلى تلك الغايات. فلا بدّ من أن تتّصف المقدمات بمجموعة من المواصفات؛ لتكون موصلة إلى الأهداف عينها دون غيرها. فما هي أهداف الدين؟ الدّين ظاهرة إلهية اجتماعية. وإضافة صفة الاجتماعي إلى الدين، تعني الحدث عن مركّب من ثلاثة عناصر هي:

الفرد + المجتمع + الحاكمية (السلطة).

فالمجتمع حقيقة تتألّف من الأفراد وهو يدار بواسطة نظام حكم مّا. ويجب على الدين، بما هو ظاهرة إلهية، أن يكشف عن توقّعاته وما يريده من هذه العناصر الثلاثة. وأن يبين معاييره للفرد الديني أو الملتزم بالدين والمجتمع الديني الملتزم بالدين، ونظام الحكم المتّصف بالصفة نفسها، وذلك في كلٍّ من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية. وإنّنا نرى أنّ الدين فعل ذلك، وقدّم الأجوبة التي تبين ما يريد الدين من هذه العناصر كلّها.

النظام الذي يحظى بتأييد الدين هو النظام العادل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾[1] وهو يؤيد المجتمع القائم بالقسط: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾[2]، ويدعوَ إلى صلاح الأفراد وإيمانهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾. ويشكّل الاجتهاد في عصر الغيبة القوّة الفعّالة التي تتمكّن من قيادة هذه الثلاثة وتبيين واجباتها في جميع علاقات الحياة الواسعة. وبهذه الرؤية يمكننا تحديد جوانب الاجتهاد وتحديد كونه هدفًا أو آلة ووسيلة للوصول إلى غاية محدّدة، وهو بالتأكيد وسيلة وآلة، ولكن للوصول إلى أي شيء؟ وهل هو آلة لبيان الواجبات الدينية للأفراد والمجتمع ونظام الحكم؟ وإن كان كذلك فبأي هدف؟ هل بهدف تحقيق أهداف الدين وغاياته؟

إذا أهمل الاجتهاد قضايا الحياة الإنسانية المعاصرة، فقد أهمل فلسفة وجوده وجوهر ماهيته؛ لأن فلسفة الاجتهاد وماهيته الجوهرية هي تحديد مسار الحوادث الواقعة من منظور الدين، و«الحوادث الواقعة» هي مختلف القضايا الحياتية للإنسان المعاصر؛ لذا لا تكون قضايا حياة الإنسان الذي عاش في الزمن الماضي موضوعًا للاجتهاد؛ لأنّها قد خضعت للتجربة، في حين أنّ القضية الرئيسة للاجتهاد هي القسم المتغير والمتطوّر للحياة لا القسم الثابت منها. وهذا القسم المتحوّل هو الذي لا بدّ من أن يكون للدين

(1) سورة النحل: الآية 90.

(2) سورة الحديد: الآية 25.

فيه دورٌ للتلبية والهداية. إنّ الاجتهاد في الواقع هو المتحدث باسم الدين، وحين يخاطبنا الاجتهاد باسم الدين فإنّه يرسم مسار الحوادث الواقعة في الحياة.

والحوادث الواقعة هي المحطّات الحسّاسة التي تحوّل حياة البشر من وضع إلى وضع آخر. يمكن لهذا التغيير في الأوضاع أن يكون سببًا في سقوط الأهداف القيمة، أو في الحفاظ عليها وحمايتها. والمقصود من تسليم الاجتهاد زمام الحوادث الواقعة، هو الحفاظ على الأهداف وحمايتها، لا تضييعها والذهاب بها. لاحظوا الاقتصاد الحديث مثلًا؛ وما يُبتلى به من استغلال، والاستغلال حيث وُجِد هو معاكسٌ للقيمة، ومضادٌّ لها. وقد أخذت هذه الظاهرة في الاقتصاد الحديث صبغةً جديدةً لتختفي وراءها، وتغطّي معاكستها للقيم الإيجابية بلبوسٍ مختلفٍ. وهذا نموذج من الحوادث الواقعة. فإذا لم يتمكّن الاجتهادً من كشف هذه الظاهرة الخبيثة وإدانتها، وإن لم يستطع مكافحة التسميات الخادعة التي يتمسّك بها الاستغلاليون، وإن لم يستطع الاجتهاد فضح الصلاح الظاهريّ الذي يستّر به هؤلاء والذي يعجز عن كشفه الرجعيون المتخلّفون، فإنّه يكون عاجزًا عن تحقيق الأهداف الدينية التي هي المهمّة الأساس له، ويكون بالتالي قد فقد ماهيته وحقيقته الجوهرية. وفي هذه الحالة لن يخرج من المعركة الفكرية منتصرًا، ولن يكون له أي دورٍ يستحقّ الذكر في سائر ساحات الحياة الإنسانية. ولسنا هنا نستند إلى التحليل بل إنّنا نتحدّث عن وقائع بدأنا بلمسها وتجربتها في حياتنا المعاصرة.

فلو لم يقف الاجتهاد المعاصر موقف المراقب الناقد في مواجهة الملكيات الكبيرة، والتجارة المتفلّتة الخارجية منها والداخلية، والربح غير المستند إلى عمل، والصناعات الكبرى، والزراعات وغيرها من المكاسب التي تزيد الهوّة الطبقية بين الناس، والتي فيها مخاطرة استغلال الموارد العامّة بشكل ظالم، لو لم يفعل الاجتهاد المعاصر مثل هذا الأمر لكان بعيدًا عن

الموقف النبوي الذي يراعي المساكين ويحمي جانبهم، ولأدّى ذلك بالتالي إلى فقدان هويته والغاية التي يطلب الاجتهاد من أجلها. ومن الغريب أنّ الذين يتحدّثون عن الاجتهاد يغفلون عن هذا الأصل، وعندما يفقد الاجتهاد مضمونه فما جدوى الحديث عن فروعه وأجزائه؟ إنّ «الحوادث الواقعة» هي التي يستمرّ مضمون الحياة بها وليس الاستمرار بمعنى التكامل دائمًا بل على العكس فقد يكون سببًا للانحطاط. والاجتهاد هو الذي يأخذ بزمامها فيوجّهها نحو التكامل والارتقاء بالإنسان. وعندما يضمن الاجتهاد محتواه ومضمونه، ويستوعِب علاقته الوثيقة بجوهر الحياة الإنسانية المتحرّكة، يمكن أن يستوعب واجباته أيضًا. وهل كلّ اجتهاد يمكن أن يحقّق صلة وعلاقة وثيقة بالحياة؟ هيهات ذلك... وأنّى لنائمٍ أن يوقظ وسنانًا.

فعندما كان الأنبياء ينادون بالعدالة ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ إلى جانب مناداتهم بالتوحيد، من الواضح أنّهم كانوا في حالة يقظة. واليقظ وحده هو الذي يمكن أن يوقظ النائمين. وهل يمكن لغير المهتمّ بالدنيا وشؤونها، وحياة الإنسان فيها، أن يدّعي القدرة على قيادة الحياة الإنسانية والتشريع لها؟

الدين هدايةٌ كاملة، والهدايةُ الكاملةُ تعني تقديم برنامجٍ وخطّةٍ لتطور الإنسان والسير به نحو الرشد؛ بحيث يتضمّن هذا البرنامجُ أسباب التطوّر ومعيقاته، ليساعد الأولى على التأثير والعمل، ويزيل الثانية من مسير التكامل ودربه. وقد اشتمل الدين بحسب رؤيتنا على هذين الأمرين:

مقتضي التطوّر: الإقبال على الله تعالى كما دعا إليه هو جلّ وعلا.

معيق التطوّر: الظلم الذي كافحه الدين.

دون العـــدالة لايمكن للمجتمع أن يسير نحو التكامل والتطوّر؛ فالظلم

من معيقات التطوّر، فكما إنّ الشرك والكفر[1] معيقان للتطوّر الفردي والتكامل على مستوى الأفـراد (وبالتبع عن تكامل المجتمع)، فالظلم الاجتماعي يعيق المجتمع عن السير نحو التكامل (وتبعًا له يعيق الأفراد أيضًا عن تكاملهم).

يقول بعضهم[2]:

«فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدّولة وبصرائها كانت سياسة عقلية، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقرّرها ويشرّعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدّنيا وفي الآخرة؛ وذلك أنّ الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فإنّها كلّها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء، والله يقول ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾[3]. فالمقصود بهم إنّما هو دينهم المفضي بهم إلى السّعادة في آخرتهم ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾[4]. فجاءت الشّرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتّى في الملك الّذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجرته على منهاج الدّين ليكون الكلّ محوطًا بنظر الشّارع. فما كان منه بمقتضى القهر والتّغلّب وإهمال القوّة العصبية في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السّياسية. وما كان منه بمقتضى السّياسة وأحكامها فمذمومٌ أيضًا؛ لأنّه نظر بغير نور الله ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[5]؛ لأنّ الشّارع أعلم بمصالح الكافّة في ما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم وأعمال البشر كلّها عائدة عليهم في معادهم من ملك أو غيره...

---

(1) معلومٌ أنّ القرآن الكريم وصف الشرك بأنّه ظلمٌ عظيم.

(2) لا ينسب الكاتب هذا النصّ إلى قائل محدّد، وبالنظر إلى التقارب بين مضمون هذا الكلام وبين كلام ابن خلدون في **المقدّمة** فقد سمحنا لأنفسنا بنقل نصّ كلام ابن خلدون، من آخر الفصل الخامس والعشرين.

(3) سورة المؤمنون: الآية 115.

(4) سورة الشورى: الآية 53.

(5) سورة النور: الآية 40.

وأحكام السّياسة إنّما تطلع على مصالح الدّنيا فقط ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[1]، ومقصود الشّارع بالنّاس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشّرائع حمل الكافّة على الأحكام الشّرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشّريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء. فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وأنّ الملك الطّبيعي هو حمل الكافّة على مقتضى الغرض والشّهوة، والسّياسي هو حمل الكافّة على مقتضى النّظر العقلي في جلب المصالح الدّنيوية ودفع المضارّ، والخلافة هي حمل الكافّة على مقتضى النّظر الشّرعي في مصالحهم الأخروية والدّنيوية الرّاجعة إليها؛ إذ أحوال الدّنيا ترجع كلّها عند الشّارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشّرع في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا به فافهم ذلك واعتبره.

فالاجتهاد بالمعنى الصحيح هو الذي يمكن أن يكشف عن جوانب الدين البنّاءة للمجتمع، فالمجتهد إنسان حي، وبمعلوماته الواسعة (الاجتهاد المطلق) وكفاءته (الملكة القدسية لا مجرّد العدالة المطلوبة في إمامة الصلاة وما شابهها) يدخل في حياة البشر المعاصرين له حتى يوجّهها ويبين للناس واجباتهم وتكاليفهم الشرعية.. فهل يدور أمر الإنسان في كلّ عصر بين أن يكون: إما ظالمًا وإمّا مظلومًا؟ وهل يمكن للاجتهاد تجاهل هذين الوصفين وعدم التطرّق للظلم والانظلام في حياة الإنسان؟ إذا كان يجوز للاجتهاد مثل هذا فكيف يصدّق من يدّعي له قيادة الحياة الإنسان وإدارتها؟ إنّ الحياة الإنسانية فيها على الدوام من هو ظالم وفيها من هو مظلومٌ، ومعنى إدارة الحياة الإنسانية أن يتّخذ موقفٌ من البشر المتّصفين بإحدى هاتين الصفتين. وعلى ضوء هذا يمكن فهم الكلام المنقول عن الإمام علي (ع) حيث يبين ما أخذ الله على العلماء بقوله: «أن لا يقارّوا على كظة ظالمٍ ولا

(1) سورة الروم: الآية 7.

سغب مظلوم»[1]. فما لم يُعرف دور المجتهد الحقيقي، لا تُعرف ماهية الاجتهاد ولا أبعاده، وهذه هي المسألة الأساس.

وبعبارة أخرى: إنّ المجتهد هو الشخص الذي يبين أحكام الدين الإسلامي للناس، وهذه الأحكام قد شُرّعت من أجل أهدافٍ وأغراضٍ صرّح بها القرآن الكريم وعبّر عنها بلام التعليل ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾[2]، فعلى المجتهد أن يوجّه استنباطاته وآراءه نحو القيام بالقسط، ولذلك يجب عليه أن يلتفت أثناء عمله العلمي إلى أمرين، هما:

أن تكون جميع الأحكام التي ينتهي إليها رأيه في خدمة تحقيق القسط، ولا يكفي أن لا تكون معارضة لذلك الهدف؛ بل يجب أن تكون تلك الآراء جسرًا ووسيلة مساعدة لجعل المجتمع قائمًا بالقسط والعدل.

الأمر الثاني هو السعي لاكتشاف أحكام الموضوعات التي لم تستنبط حتّى الآن. وهذا هو أحد أسباب اختلاف الفقهاء في عدد «آيات الأحكام» وعدد «روايات الأحكام»؛ وذلك أنّ كثيرًا من الآيات والروايات التي ينبغي أن تَدخل في آيات الأحكام لم تُكتشف حتى الآن.

من هنا، لا بد من العمل على تحقيق فلسفة الاجتهاد وعلّة وجوده. فعندما نعرف وظيفة المجتهد ودوره الذي يجب عليه القيام به نعرف من هو المجتهد الذي يستحقّ تطبيق هذا الاسم عليه.

نقلنا قبل قليل عن الإمام علي (ع) قوله: «وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم». فهل يمكن أن تكون هذه المقولة غريبة عن الاجتهاد والفتوى؟ بلى، إنّ لها علاقة وثيقة وجوهرية بالاجتهاد. أليس المجتهد عالمًا؟ إذا كان عالمًا فهو مسؤول حتمًا، وقد جعل الإمام

---

(1) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج1، ص36.

(2) سورة الحديد: الآية 25.

(ع) هذه المسؤولية على عاتقه، وذلك لأنّه هو الذي يتحمّل مسؤولية اكتشاف الأحكام ومسؤولية تطبيقها.

فإذا كانت رؤية المجتهد ـ بسبب ضعف معلوماته أو ضيق أفقه ـ تجعله يرى الظالمين في المجال الاقتصادي ملتزمين ومنضبطين، معتبرًا تصرفاتهم التجارية وعلاقاتهم الاقتصادية منطبقة على القواعد الفقهية وهي علاقات وتعاملات مشروعة، وإذا كان يدفعه ذلك إلى الاعتقاد بحلّ مكاسبهم وتكاثرهم، دون أن يلتفت إلى الأضرار المترتّبة على طريقة تحصيل هذا المال، ومدى إضراره بمفهوم العدل والقسط، ودون الالتفات إلى التأثير السلبي لهذا الكسب على الفقراء والمحرومين، وسقوط الحركات البنّاءة في الإسلام، ولا الالتفات إلى تأثير هذا الأمر على الجيل الصاعد، وما يترتّب على ذلك من إتاحة الفرصة لمعارضة الدين والدعاية السلبية ضدّه، إذا كان المجتهد يعاني من ذلك كلّه: فكيف يمكنه الوقوف في وجه أصحاب الإثرة وكيف يقدر على السير في ركاب علي (ع)؟ إذا لم يعارض الفقيه هؤلاء ولم يعدّهم معتدين وظالمين، ولم يعتقد بأنّ «كظّة الظالم» هي السبب الذي يؤدّي إلى «سغب المظلوم»؛ وإذا لم ينسب هذا الخلل إلى الظالمين كما يصرّح القرآن الكريم؛ بل نسبه إلى الله تحت عنوان القضاء والقدر، من يرى الأمور بهذه الصورة كيف يمكنه أن يقف إلى جانب المظلومين اقتصاديًا والمحرومين اجتماعيًا، من ضعفاء أمّة الرسول (ص) والمساكين من شيعة الإمام المهدي (ع)[1]؟!

وعندما لا يتصدّى العالِم لمصارعة الظالم، ولا يمدّ اليد إلى المظلوم، فما هو الفارق بينه وبين الجاهل؟ ولِمَ يحظى بمكانة العالِم ومقامه؟ وأين

---

(1) انظر: حديث عليّ بن مهزيار الذي سوف نورده لاحقًا في هذا الكتاب، في المحور السادس عشر من محاور العدالة؛ لتعرف موقف الإمام المهديّ (ع) من التكاثر الذي يؤدّي إلى ترك سائر الناس تحت وطأة الفقر والفاقة.

موقع أمثاله، هل هو في موقع قارون أم في موقع موسى (ع)؟ وفي موقع محمّدٍ (ص) أم في موقع أبي سفيان؟

وهذه هي قمّة التعاليم القرآنية السامية، التي تبين أنّ الظلم الذي يحيق بالناس هو من فعل الناس أنفسهم، وليس من فعل الله تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. وقد صرّح القرآن بهذا المعنى في أكثر من موضع، حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[1]، فالظلم الوارد على البشر من البشر أنفسهم وليس نتيجة من نتائج القضاء الإلهي؛ ولأجل هذا تجب مكافحته والتصدّي له. إنّ للظلم سببًا إنسانيًّا ولا بدّ من الوقوف في وجه هذا السبب، والفقر كذلك ظلمٌ اجتماعي، وسببه، كما جاء في كثير من الأحاديث فضلًا عن القرآن الكريم، وفاعلوه هم الأغنياء والحكام والعلماء؛ لأن الأغنياء يمتنعون عن دفع حقوق الفقراء ويسرقونها[2]، والحكام لا يحاولون أخذ هذه الحقوق وإعطاءها لأصحابها[3]، والعلماء لا يطالبون بالقضاء على فقر المساكين ولا يحاولون منع الظالمين من التطاول عليهم[4].

ذكرنا أنّ الغاية الرئيسة للدين في الحياة الاجتماعية هي إقامة العدل. وقد ورد في كلام أمير المؤمنين علي (ع) أنّ من الأمور المساعدة على قيام العدل ترك ممالأة الظالم، وتجنّب الاستخفاف بالمظلوم وحقوقه. وبالتالي فإنّ الاجتهاد إذا كان مؤطّرًا بهذا الإطار فيمكنه أن يحقّق الأهداف التي من أجلها يسعى.

---

(1) سورة العنكبوت: الآية 40.

(2) وردت أحاديث عدّة في هذا المعنى، (انظر: محمد رضا حكيمي وآخرون، **موسوعة الحياة**، ج3، ص296 فصاعدًا).

(3) للاطلاع على الأحاديث الواردة في هذا المعنى، انظر: محمد رضا حكيمي وآخرون، **موسوعة الحياة**، ج4، ص341.

(4) من الأحاديث الدالّة على هذا المعنى ما نقلناه عن أمير المؤمنين عليّ (ع): «وما أخذ الله على العلماء...».

يريد الدين أن يبني مجتمعًا قائمًا بالقسط. وهذا أمرٌ لا شكّ فيه، وهو ممّا يقتضيه حكم العقل، ومما صرّح به القرآن الكريم وكثير من الأحاديث. فالمجتمع الديني لا بدّ من أن يتّبع الفقه وينسجم معه في جميع نشاطاته وفعالياته وخاصّة في المجال الاقتصادي، كالأمور الآتية: البيع والشراء وأقسام التجارة والاحتكار ومـوارده والتسعير وغير ذلك. فإذا لم يكن المجتهد خبيرًا في الاقتصاد الحديث ومسائله، لا يمكن أن تكون آراؤه صائبة في المعاملات التجارية. وإذا لم يكن له رأي صائبٌ فسوف ينتشر الظلم الاقتصادي في المجتمع وسيجد أصحاب التجارة الباب مفتوحًا أمامهم لأي استغلال، كما سيبادر المستغلّون إلى امتصاص دماء الناس. فهل يمكن لهذا المجتمع أن يكون قائمًا بالقسط؟ وإذا لم يكن المجتمع قائمًا بالقسط فهل يمكن أن يكون عاملًا بأحكام الدين؟ وعندما يكون المجتمع مدّعيًا العمل بأحكام الدين (مجتمعًا دينيًّا) فإنّ الظلم الذي يمارَس فيه سوف يحمَّل الدين مسؤوليته، ولكن هيهات أن يجوّز الدين الظلم، وإنّه لهو المظلوم الأكبر في هذا المجال، ويجب على ذوي الشأن التصدّي للدفاع عنه وردّ الظلم عنه.

ولا يحسبنّ الجاهلون ولا أنصار المترفين وأعوانهم، ولا الرجعيون أنّ هذه الكلمات تفتقد الدليل الشرعي عليها، أو أنّها من نتائج أفكار التأثر بالتنوير الغربي[1]. إنّ جميع هذه القضايا مستندة إلى القرآن والحديث، والكتاب والسنّة، وبالتالي فلا بدّ للفقه من أن يكون مهتمًّا بإقامة العدل؛ وليس هذا الأمر غريبًا عن الفقه الإسلامي فهذا هو الفقيه صاحب الجواهر يشير إلى أنّ العدالة تقتضي توسعة تحريم الاحتكار إلى أوسع ممّا ورد النص به وهو النص الذي يحصر حرمة الاحتكار في عددٍ من البضائع دون غيرها.

(1) وهذا من المآسي ومن الأدلّة على وخامة الأزمة التي نعاني منها في هذا العصر؛ فعندما يتحدّث أحدهم عن العدالة يُتّهم أو يخشى أن يُتّهم بالتأثر بالشرق أو الغرب، وكأنّ إقامة العدل لم تكن هدفًا للأنبياء عبر التاريخ.

ويرى إمكان الاستناد إلى عنوان الظلم الاجتماعي للحكم بتحريم الاحتكار في ما هو مسكوت عنه.

وببيان آخر: المجتهد هو الذي يقود المجتمع الديني ويرسم له حركاته ونشاطاته، والمجتمع الديني هو المجتمع العامل بأحكام الدين. ففي عصر الغيبة يستنبط المجتهد أحكام الدين ويقدّمها إلى الناس ليعملوا بها. ولا يكون المجتمع قرآنيًا ودينيًّا إذا لم يهتدِ بهدي القرآن والدين. وعن كيفية تحقّق الهداية القرآنية، نقول إنّ القرآن يعرّف نفسه بأنّه «هدى للمتقين»، فهذا الكتاب يهدي المتّقين، وهنا يمكن أن يسأل: من هو المتّقي؟ فإذا ظنّ أحدهم أنّ المتقي هو إنسانٌ هادىءٌ بعيدٌ عن الانشغالات والواجبات الاجتماعية، وهو الذي يمارس العبادة الفردية والسلوكَ الديني، فهذا سوء ظنٍّ بالدّين وسوء فهم له. ولا تتوقّف معرفة المتّقين على الاطلاع على خطبة المتّقين لأمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة. حتّى من لم يقرأ هذه الخطبة ينبغي أن يعرف أنّ المتّقي هو العامل بالتكليف. وقد بيّن القرآن الكريم طريق الوصول إلى التقوى، وهو العدالة، فقال: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[1]، فالمتّقي هو المهتمّ بالعدالة وإقامتها، وهو المهتمّ بمواجهة الظلم. ووفق المنطق القرآني، المتّقي هو الإنسان الذي يراعي جانب العدالة في تعامله مع نفسه وأسرته وأفراد مجتمعه، ويلاحظ العدالة في أي موقع وظيفي أو مهني كان. فالمتّقي أسدٌ زائرٌ في مجال الواجبات الفردية والاجتماعية، ورائدٌ في ميدان مكافحة أشكال الظلم الاقتصادي والقضائي والاجتماعي، وهو الذي يحرز قصب السبق في الدفاع عن العدالة. مثل هؤلاء الأشخاص هم الذين يمكن أن يتولّوا هداية الناس إلى القيم المتعالية السامية.

يقول الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۞ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[2].

---

(1) سورة المائدة: الآية 8.

(2) سورة النمل: الآيتان 52ـ53.

وما ينبغي أن يلفِت النظر في هاتين الآيتين ذكْر عبارتي: «بما ظلموا» و«وكانوا يتّقون»، إحداهما إلى جانب الأخرى. وهذا من المؤشّرات على التقابل بين الظلم وبين التقوى، وبالتالي تكون التقوى مساويةً للعدالة، ومن هنا أسمح لنفسي أن أفهم من وصف الله القرآنَ بأنّه هدًى للمتّقين، أنّه هدًى للعادلين.

الهداية الخاصة التي يقدّمها القرآن الكريم يخصّ بها العادلين، والمجتمع القائم بالقسط. فالمجتهد الذي يريد أن يوجّه حراك المجتمع عن طريق استنباط الأحكام الدينية والمعايير الفقهية؛ بحيث تكون أفكاره متّصفةً بالقرآنية والهداية، لا بد من أن يجعل إقامة العدل هدفًا أساسًا له، ولا بد له من أن يفتي لصالح إقامة العدل. بل لا بد من أن يكون مضمون جميع فتاواه لأجل إقامة المجتمع العادل.

فالمجتهد قائدٌ وموجِّهٌ لنشاطات الفرد والمجتمع. ولكن أي مجتمع وأي أفراد؟ هم الذين يهتدون بهدي القرآن. نعم، هم العاملون بالعدل فعلًا، وهم الذين تنسجم تصرفاتهم مع معايير العدل وموازينه، ولا شيء وراء هذا. وذلك أنّ حيازة القرآن وقراءته وحفظه وطباعته، لا تؤدّي إلى تحوّل المجتمع إلى مجتمعٍ قرآني؛ بل العمل بالقرآن هو الذي يجعل المجتمع قرآنيًا، وهل ثمّة هدفٌ وراء هذا الهدف لمن يدعو المجتمع إلى الإسلام وإلى العودة إلى أحضان الدين؟

هنا يظهر السرّ الكامن للإمام علي (ع) حيث يقول: «العدل حياة الأحكام»؛ فإنّ حياة أحكام الدين بحياة الأهداف الكامنة وراء هذه الأحكام. فالاهتمام بأحكام الدين دون أهدافه من أكبر الأضرار التي تصيب الدين؛ بل إنّ هذا الخيار هو إلغاء للدين على نحو التدريج.

فما هو العدل؟ تختلف تعريفات العدل باختلاف التيارات الاجتماعية والقانونية والفلسفية؛ والعدالة القرآنية ينبغي أن يؤخذ تعريفها من العالم بالقرآن الكريم. ومن بين العالمين بالقرآن الذين تفضّلوا على الأمّة بتعريف

العدالة، تمكن الإشارة إلى الإمام الصادق (ع) الذي ورد عنه قوله: «إن الناس يستغنون إذا عُدِل بينهم»[1].

يمكن وصف هذا الحديث بأنّه من المعجزات التعليمية للمعصومين (ع).

وقد حان وقت ملاحظة الانسجام التامّ بين التعاليم الدينية. فالعدالة سبب لحياة أحكام الدين، وبالعدالة يزول الفقر. والفقر سببٌ من أسباب الكفر «كاد الفقر أن يكون كفرًا». فالعدل سبب لبقاء الدين والتدين وحياة الأحكام (العدل حياة الأحكام) و (لولا الخبز ما صلّينا). فالمجتهد الذي يدّعي أو يدّعى له أداء مهمّة حراسة الدين وحياته وأحكامه، لا بدّ من أن تكون جميع فتاواه وآرائه، في خدمة تحقيق العدالة وإقامة القسط، ورفع الظلم. ومثل هذا الفقيه لا يدخل في حساباته ولا يجعل من بين همومه نقض فتوًى أو التراجع عنها، إذا كان ذلك يصبّ في مصلحة العدالة وتحقيقها.

يتبين ممّا تقدّم حتّى الآن، الإجابة الدقيقة والمعتبرة عن السؤال عن دور الرؤية الكونية التي يشتمل عليها القرآن الكريم في الاستنباط الفقهي. وذلك أنّه لا شك في وجوب مراجعة آيات الأحكام عند الاستنباط؛ ولكن لا ينبغي الاقتصار على ما صُنِّف تاريخيًّا بهذا الاسم؛ بل لا بد من مراجعة عددٍ آخر من الآيات وهي الآيات التي تسهم في تقديم الرؤية القرآنية إلى بناء المجتمع والتي تبين نظرة القرآن إلى الكون.

ويعلم الله تعالى وكفى به شاهدًا، ويشهد العقل ويصرّح النقل وتفيدنا التجربة أنّ الاهتمام بأحكام الدين ينبغي أن يعني الاهتمام بأهدافه، وتجاهل الأهداف يعني تجاهل الأحكام. فهذه الأخيرة لا تُعرف على وجهها الصحيح إلا في ضوء الأهداف والغايات، ولا تكتسب صفة الإلهية إلا إذا أسهمت في بناء المجتمع وفق الخطّة الإلهية المرسومة للإنسان والكون، ألا وهي بناء الإنسان العادل والمجتمع العادل.

---

(1) الكليني، الكافي، ج3، ص568.

الفصل الثاني

«محاور العدالة»

اتّضح ممّا تقدّم من حديث عن الميزتين الأهمّ من ميزات المجتمع القرآني، وهما العدالة والصلاة، ومن الحديث عن الأحكام الدينية وأهدافها، اتّضح من ذلك من افتراض القراءة المتأنية له وجود ركنين ركينين لتحقّق المجتمع القرآني هما: الصلاة والعدالة، وإذا انتفى أحد هذين الركنين ينتفي المجتمع الموصوف بأنّه قرآني.

وفي هذه المقالة نودّ عرض مجموعة من المحاور والأسس الهامّة تحت عنوان «محاور العدالة». وذلك أنّ التعاليم الإسلامية تضمّنت عددًا من المبادئ والمحاور التي تكشف عن وجوب تحويل العدالة إلى واقع اجتماعي ملموس. وقد خصّصنا هذه المقالة لاستعراضها والحديث عنها، وقد وصل عددها بحسب ما انتهى إليه استقصاؤنا إلى 52 محورًا، نعرضها على النحو الآتي:

المحور الأول: التوحيد (العدل في عقيدة التوحيد)

إنّ المؤمنين بالتوحيد الحقيقي ـ بمعنى أزلية الله الواحد وأبديته ـ يؤمنون بأنّه تعالى عادلٌ. والمستند الذي يبنى عليه الاعتقاد بالعدل كواحدةٍ من الصفات الإلهية هو آيات القرآن الكريم والأحاديث والعقل، وخاصة العقل الخالص الوحياني. ثمّ إنّ المذاهب الإسلامية التي تعتقد بالعدل قد

أخذت هذا الاعتقاد من الشيعة، والشيعة أخذوه من القرآن وأئمّة أهل البيت (ع) وحوّلوه إلى أصل من الأصول العقدية. والعقل يؤيد هذا الأصل أيضًا ويدلّ عليه. ومن الواضح جدًّا أنّ الله ـ بما أنه الخالق والعادل ـ يحبّ العدل ويوجبه، ويكره الظلم ولا يرضى بغيره؛ فالتكوين والتشريع مبنيان على أساس العدل.

أ ـ العدل في التكوين

تتجلّى صفة العدل الإلهي في نظام الخلق والتكوين، بحيث لا يخرج أي مخلوق، بحسب أصله وطبيعته التي خُلِق عليها، عن حدود العدل والعدالة الإلهية في عالم الخلق، يقول الإمام علي (ع):

«العدل أساس به قوام العالم».

والآيات والأحاديث التي وردت في هذا المعنى كثيرةٌ ومعروفةٌ يغني العلم بها عن ذكرها. وعليه لا بدّ من نقل العدالة من عالم التكوين إلى ميدان المجتمعات البشرية أيضًا، حتى تتحقّق مرضاة الله وسعادة البشر في الآن عينه. وحتّى يتحقّق الانسجام بين النظم الاجتماعية وبين عالم التكوين، ولا يحصل أي شكلٍ من أشكال التعارض بين العالمين.

ب ـ العدل في التشريع

وبناء على ما مرّ يتبين أنّ النظم الدينية التشريعية، بحسب ما أنزلها الله تعالى، لا تقوم ولا تتأسّس إلّا على قاعدة العدالة وتطبيقها، هكذا كانت وهكذا ستبقى. وانتظر المزيد في المحورين الآتيين.

المحور الثاني: النبوّة العامة (بعثة الأنبياء)

في جميع الشرائع الإلهية نجد أنّ العدالة هي المبدأ الأساس، حيث يذكر القرآن الكريم بصراحةٍ أنّ الهدف الاجتماعي الأساس من تشريع الأديان وإرسال الرسل والأنبياء إلى الناس والدعوة إلى الأديان السماوية

هو تطبيق العدالة، لتُبنى الحياة الإنسانية على قاعدة العدالة: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[1].

وعليه يجب أن تكون العدالة هي الأساس الذي تقوم عليه حياة الأفراد، وحياة الجماعات والأقوام، وذلك في كلّ مكانٍ وزاوية من العالم، ويجب أن تكون العدالة قطب الرحى الذي تدور عليه الحياة الإنسانية كلّها. وكلّ ظلمٍ يوجد أنّى وأينما وُجِد، سوف يكون معاكسًا ومضادًّا للغايات التي يبتغيها الله من بعثة الأنبياء والرسل، مهما كان هذا الظلم يسيرًا وقليلًا. ومن هنا ورد في الأحاديث الدينية أنّ الحاكم الظالم هو أوّل من يدخل النار[2].

المحور الثالث: النبوّة الخاصة (بعثة النبي الأكرم محمّد (ص))

الإسلام هو الدين الخاتَم والشامل قياسًا إلى سائر الأديان السماوية، ولا يوجد دين غيره بعده وبعد نزول القرآن الكريم إلى يوم القيامة. والعدالة في الإسلام تقع في رأس قائمة الأولويات إلى جانب عددٍ من القضايا الرئيسة الأخرى. فمضافًا إلى أنّ تطبيق العدالة من الأهداف الاجتماعية لإرسال الأنبياء عمومًا، فإن هذا الأمر لا بد من أن يكون هدفًا رئيسًا أيضًا في الإسلام بما هو خاتم تلك الأديان؛ لذلك نجد أنّ تطبيق العدالة وتحقيقها وصِف بأنّه القضية الأساس التي يمكن أن يبغي الإسلام عنها حولًا ولا يرتضي لها بدلا[3].

يقول الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾[4]، ويبين

(1) سورة الحديد: الآية 25.

(2) محمد رضا حكيمي وآخرون، **موسوعة الحياة**، ج6، ص352.

(3) انظر: المصدر نفسه.

(4) سورة النحل: الآية 90.

الإمام الباقر (ع) سلوك الرسول (ص) بقوله: «أبطل ما كان في الجاهلية واستقبل الناس بالعدل، وكذلك القائم (ع) إذا قام يبطل ما في الهدنة ممّا كان في أيدي الناس ويستقبل بهم العدل»[1].

توضيح:

راوي هذا الحديث من المحدّثين المشهورين، وهو محمد بن مسلم الثقفي. يقول: سألت أبا جعفر (ع): عن القائم عجل الله تعالى فرجه إذا قام بأي سيرة يسير في الناس؟ فقال: بسير ما سار به رسول الله (ص) حتّى يظهر الإسلام. قلت: وما كانت سيرة رسول الله (ص)؟ قال: أبطل ما كان...إلى آخر ما نقلنا أعلاه.

يستفاد من هذا الحديث، على اختصاره وقلّة عدد كلماته، مجموعة من الأصول والمبادئ التي يجب أن تقوم عليها الجماعات البشرية لتحقيق المجتمع القرآني الذي يريده الله عزّ وجلّ، وهي:

1 ـ يجب على السلطة الدينية من أن تجعل تحقيق العدالة على رأس أولوياتها الاجتماعية. وأن تتعامل مع جميع الناس بالعدل، لا أن تكون سببًا للتفضيل والتفرقة بين شريحة وأخرى، كما يسمّيه نهج البلاغة بـ «الاستئثار»، وهو بمعنى تفضيل شريحة خاصة.

2 ـ إنّ القائم من آل محمد (ص) الذي يقيم الحكومة الإسلامية يبدأ مشروعه الاجتماعي من مبدإ تحقيق العدالة الاجتماعية.

3 ـ في نظام الحكم القرآني الأصيل تُصادَر أموال الأغنياء والمترفين الذين يجعلون مال الله دولة بينهم حكرًا على أنفسهم، وتُلغى القرارات الظالمة والأحكام الجائرة.

بلى، هذه هي المواقف التي تتّخذها الدولة الدينية. وعليه لا يمكن التعامل

---

(1) الطوسي، **تهذيب الأحكام**، ج6، ص154.

مع هذه الأمور بسذاجة وبساطة، ونسبة أي شكلٍ من أشكال التصرّف وأي منهج من المناهج التي تتّبع في المجتمع بالنظام الإسلامي، حتّى إذا أدّى إلى استغلال الأموال العامّة والاستئثار بالمناصب، وبالتالي إلى زعزعة إيمان الناس وتدينهم. فمن الواجب الاعتراف بالخلل في مواضع الخلل، وهو أفضل وأشرف من نسبة هذا الخلل إلى الدين، وفي هذا الاعتراف رضا الله تعالى، وتنزيه الدين عن تجويز الظلم والتمييز، ويؤدّي إلى تحصين الدين من سوء الظنّ به والاعتقاد بأنّه نظامٌ يصلح لإدارة الآخرة ولا يصلح لإدارة الدنيا، ومثل سوء الظنّ هذا يلغي فاعلية الدين في تربية الفرد والمجتمع. وإذا أخرجت السياسة من مذهب أو اتّجاه، فإنّ ذلك يعني حرمانه من التأثير في مجال التربية، ولا يحتاج مثل هذا التحذير إلى الاستدلال فهو مؤيدّ بالتجربة المحسوسة. إذًا، يجب على العاملين في الشأن العامّ الاهتمام بتطبيق العدالة وتحقيقها، وسياسة الناس وإدارة حياتهم على أساسها، وعلى حدّ قول أمير المؤمنين علي (ع): «العدل سائسٌ عام»[1].

المحور الرابع: المعاد

الاعتقاد بالمعاد الجسماني والعودة إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت، وكذلك الاعتقاد بالحياة البرزخية من الأسس والمبادئ الإيمانية في الأديان السماوية. وفي الإسلام، تعدّ الحياة البرزخية وما بعد الموت استمرارًا لهذه الحياة الدنيا. وقد وصفت النصوص الدينية الإسلامية الحياة الآخرة بدقّةٍ بالغةٍ، وسمّت العودة إلى الحياة بعد الموت بأسماء عدّة منها «يوم القيامة»، ومنها «يوم الجزاء». وسبب التسمية بهذا الاسم الأخير أنّ الإنسان سوف يجزى في ذلك اليوم بما عمل في الدنيا. وتؤكّد الآيات والأحاديث أنّ الظلم لا يبقى دون عقاب، وأنّ الله تعالى لا يهمل أي مقدارٍ من الظلم كائنًا ما كان، وخاصّةً الظلم الذي يمارسه بعض الناس على بعضهم الآخر.

---

(1) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج4، ص102.

ولأجل هذا ورد في التعاليم الإسلامية وفي الكتب الفقهية، حديث مفصّلٌ عن حقوق الإنسان؛ بل ورد ما يدلّ على ثبوت حقوقٍ للحيوانات أيضًا. واحترم الإسلام هذه الحقوق وشرّع لحفظها أحكامًا إلزامية كالوجوب والحرمة، فحرّم إيذاء الحيوان، وأوجب إطعام الحيوان المملوك وإيواءه، وحمايته من حرّ الصيف وبرد الشتاء.

فالاعتقاد بالمعاد محورٌ عميق الغور في ما يرتبط بالعدالة وتحقيقها في جميع جوانب الحياة ولكلّ شخص وفي كلّ منصب من المناصب، وحتى بالنسبة إلى سائر الكائنات. يقول الشاعر الإيراني الكبير حافظ الشيرازي: «كلّ عمل له أجر وكلّ تصرّف له جزاء»[1]. وقد ورد في القرآن الكريم ما يدلّ على هذا المعنى بأوضح بيانٍ[2].

المحور الخامس: العقل

رُوِي عن الإمام علي (ع) قوله: «من علامات العقل: العمل بسنّة العدل»[3].

وفي محلٍّ آخر يسأل عن وصف العاقل ومن هو العاقل؟ يقول (ع): «هو الذي يضع الشيء مواضعه»[4].

---

(1) وقد سُمّي يوم القيامة بيوم الجزاء؛ لهذا السبب. وهذا من أوضح الأدلّة على أنّ الدين هو أوّلًا وبالذات من أجل دنيا الناس، وأمّا الآخرة فهي تقع في المرتبة الثانية؛ حيث إنّ الآخرة هي محلّ الجزاء والوصول إلى نتائج الأعمال التي يؤدّيها الإنسان في الدنيا. ولو لم يكن الدين وأحكامه فما هو الأساس الذي يُستند إليه للحساب يوم القيامة؟ ولأجل هذا نحن ندعو الدول الإسلامية إلى تطبيق أعمالها وقراراتها على قاعدة العدالة وجعلها في أوّل سلّم الأولويّات، كي يسلم العاملون فيها من المؤاخذة يوم القيامة.

(2) سورة الأنبياء: الآية 47؛ سورة لقمان: الآية 16.

(3) الآمدي، **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص306.

(4) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، تحقيق: صبحي صالح، ص510.

ويعرّف العدالة بقوله: «العدل يضع الأمور مواضعها»[1].

يفهم من هذه الكلمات أنّ الإنسان العاقل الذي يتمتع بالعقل هو من يهتمّ بالعدالة ويطبّقها.

وفي الحديث المعروف باسم جنود العقل والجهل الذي رُوِي عن الإمام الصادق (ع)[2]، عُدّت العدالة من جنود العقل كما عدّ الظلم من جنود الجهل.

الحدّ الوسط ونقطة الاعتدال بين طرفي الإفراط والتفريط هي العدالة، وهي الحدّ السليم للأمور، خاصّةً في الأمور المالية والاقتصادية والمعيشية. والعقل من اكتشاف القوانين الحاكمة على عالم التكوين[1]، وعلى المجتمع الإنساني[2]، وعلى الهوية التكوينية للإنسان[3]، ومن وسائل الاستفادة من هذه الأمور في مسيرة التطوّر والرشد على الإنسانيين على الصعيدين الفردي والاجتماعي[4]. وفي هذا السياق يوضع ما نقلناه أعلاه عن الإمام علي وهو قوله (ع): «من علامات العقل العمل بسنّة العدل». والجهل من جهة ثانية هو سبب الإفراط والتفريط، وسببُ الانحراف عن مقتضى الاعتدال والتوازن في الحياة الفردية والاجتماعية: «لا يرى الجاهل إلا مفرطًا أو مفرّطًا»[3].

وهذا يكشف عن أهمية العدل وموقعه في تكامل حياة الإنسان، ففي المجتمعات الرأسمالية ابتعد العلم والاختصاصات الاقتصادية عن العقل واستسلم لأسباب الجهل؛ ولذلك لا تهتمّ تلك المجتمعات بالعدالة وتطبيقها.

---

(1) المصدر نفسه، ص553.

(2) الكليني، **الكافي**، ج1، ص21_21.

(3) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج4، ص16، مع الإشارة إلى استخدام كلمة «تَرى...»، بدل «يُرى».

المحور السادس: القرآن

لا حاجة إلى التذكير بأنّ القرآن الكريم هو أكبر كتاب للدعوة إلى وجوب تطبيق العدالة. فهذا الكتاب يعدّ الحياة القائمة على أساس العدالة هدفًا لإرسال الأنبياء. وهذا الكتاب يقدّم نفسه هاديًا للمتّقين، ويكشف عن أنّ أقرب طرق الوصول إلى التقوى هو تطبيق العدالة: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1]. وهو كتاب يعرّفه الإمام علي (ع) بقوله: «هو الناطق بسنّة العدل»[2].

وعليه يجب على المؤمنين بهذا الكتاب السعي والإصرار على تطبيق العدالة والقسط؛ بل ينبغي أن يكون من أنشط الساعين في هذا السبيل، ولأجل هذا يقول القرآن الكريم:: ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾[3]. وإذا أرادوا إحياء القرآن فلا بدّ من اتّفاقهم جميعًا على بذل أقصى الجهود في مجال العمل بالقرآن، والعمل بالقرآن يتألّف من عناصر منها إقامة العدل والصلاة. ومن هنا لا يكفي تصدّي شخص أو بضعة أشخاص لإحياء أمر القرآن؛ بل هو أمرٌ اجتماعي عامٌّ، يقول الإمام علي (ع): «إحياؤه الاجتماع عليه»[4]. فالقرآن يكون معمولًا به وحيًّا، إذا اجتمع المسلمون على تطبيقه في حياتهم، واهتموا بجميع أحكامه وراعوا جميع تعاليمه وتوصياته على صعيدي العقيدة والعمل، ومن المبدإ إلى المعاد، وفي ما بينهما أي في الدنيا وما يرتبط بها من اقتصاد ومعيشة وغيرها.

المحور السابع: الغدير

جوهر واقعة الغدير هو الإمامة. وجوهر قضية الإمامة العدالة. وقد أكّد

---

(1) سورة المائدة الآية 8.

(2) الآمدي، **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص330.

(3) سورة النساء: الآية 135.

(4) الطوسي، **الأمالي**، ص251.

الرسول الأعظم (ص) أكثر من مرّة على أنّ عليًّا (ع) هو وصيه من بعده؛ لما لعلي (ع) من مكانة سامية وراقية؛ وليس ذلك لأسباب شخصية بل لأن عليًّا هو أكثر الناس التزامًا بالعدالة وأحرصهم على تنفيذها: «أعدلكم في الرعية»: «أما واللّه إنه أولكم إيمانًا باللّه، وأقومكم بأمر اللّه، وأوفاكم بعهد اللّه، وأقضاكم بحكم اللّه، وأقسمكم بالسوية، وأعدلكم في الرعية، وأعظمكم عند اللّه مزية»[1].

ومن هنا يمكن القول إنّ الغرض من جمع الناس في ذلك الموضع المعروف بغدير خم وحكمته، هو إبلاغ الحاضرين ليسمعوا ولينقلوا ما سمعوه إلى غيرهم من أهل الآفاق من المسلمين وغير المسلمين، وفي هذا الجمع الذي يبلغ بحسب بعض الأخبار ما يزيد عن المئة ألف شخص (2)، ليقول لهم في ذلك المكان: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه...»، والهدف الأساس من وراء ذلك كلّه اختيار من يخلفه على إكمال مسيرة العدالة، والعمل بالقرآن كلّه وعلى رأس ذلك تطبيق العدالة بين الناس. ولا جرم أن نقول إنّ الغدير من المحاور الدالّة على الدعوة إلى العدالة والنادبة إلى تطبيقها.

المحور الثامن: الخطب الفاطمية

بعد رحيل الرسول حدثت أحداثٌ لها خلفية لتكوين نواة للحيلولة دون تحقيق مضمون ذلك الاجتماع العظيم (حادثة الغدير)، والمنع من تطبيق آيات الغدير وأحاديثه. وسط هذه الأجواء، فإنّ المتبقّي من ذكرى الرسول جسديًّا ونفسيًّا هو ابنته الكريمة. تلك المرأة العظيمة، الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء (س). هذه المرأة ـ مضافًا إلى انتسابها إلى الرسول (ص)ـ

(1) الخوارزمي، **كتاب المناقب**، ص112.

(2) انظر: الأميني، **الغدير في الكتاب والسنّة**، مطلع المجلد الأول؛ انظر أيضًا: علي رضا حكيمي، **حساسترين فراز تاريخ يا داستان غدير؛ حماسه غدير**.

هي عصمة الله الكبرى وولية له تعالى، فهي الفريدة في الاتّصاف بملامح قرآنية والتلألؤ بالأنوار المحمّدية والتمتّع بحقيقة ليلة القدر، وكانت تجسيدًا صادقًا للعمل بالتكليف، فهي الشخصية الفذّة الوحيدة التي كانت تقدر على مواجهة الأحداث بتلك الطريقة التي واجهتها بها؛ لإنذار الأمّة بما هو استمرار للنفس النبوي، وتجسيد للعصمة الرسولية.

انطلاقًا ممّا ذكرنا وممّا يشهد به التاريخ، كان من واجبها أن تذكر فلسفة الآيات والعقائد وأحكام الدين في أخطر فترة من الفرص المتاحة لأمّة أبيها، وأن لا تترك مواقع الدفاع عن الدين والقيم النبوية، وأن تتابع أداء مهمّة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1]، وأن تنادي مرّة أخرى بـ «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» في فضاء حياة المسلمين من مسجد الرسول (ص). فعندما بدأت فاطمة (س) الحديث في مسجد الرسول (ص) بعد رحيله بكلامها البركاني، أنارت تلك الكلمات بيئة المدينة المنورة التي كانت قد خلت في ذلك الوقت من رسول الله (ص). وقد استطاعت ـ سلام الله عليها ـ تقديم الحقائق القرآنية المرتبطة بالإنسان والهداية، بكلمات بصلابة الجبال، وسعة الآفاق وتلاطم البحار وبصدى الرعود وعظمة الملاحم.

لقد صدحت تلك السيدة العظيمة بصوت الغدير، وحاولت إبقاءه حيًّا إلى يومنا هذا، وحاولت أن تحول دون إخفائه ودون الزلل في تفسيره. وأنذرت أمّة أبيها بأنّهم إنْ هم أعرضوا عن الإمامة فسوف يسأمون استبداد الظالمين عبر العصور الإسلامية. ومع الأسف لم تجد الكثير من الآذان الصاغية، فحصل ما كانت تحذّر منه، واستولى المستبدّون على تراث رسول الله (ص) وتداولوا فيء الإسلام في ما بين طائفة محدودة من الناس. ومن هنا يمكن القول إنّ الخطب الفاطمية من أهم المحاور الدالّة على العدالة.

---

(1) سورة المائدة: الآية 67.

المحور التاسع: نهج البلاغة

هل ثمّة حاجةٌ إلى التذكير بأنّ نهج البلاغة هو كتابُ عدالةٍ؟ وهل كلّ من يردّد صدى كلمات هذا النهج يلتزم بالعدالة في سلوكه ويرى وجوب تنفيذها؟ يقول هذا الكتاب: «كونا للظالم خصمًا وللمظلوم عونًا»[1]. أليس هذا الكتاب هو الذي يسمّيه مفكرٌ وكاتبٌ مسيحي كبير في منتصف القرن العشرين -وبعد ظهور المدارس الفكرية والاتجاهات القانونية والاجتماعية وبعد ظهور المصلحين الكبار وحدوث الثورات العظيمة- يسمّيه بـ «الأثر الخالد» ويصف صاحبَه بأنّه «صوت العدالة الإنسانية». فلولا «نهج البلاغة» لكانت العدالة أكثر المفاهيم مظلومية في التاريخ. ولو لم يفسّرْ «نهج البلاغة» العدالةَ لبقيت آيات القسط والعدالة في القرآن الكريم من غير تفسير إلى الأبد: فليس من العبث أنّ الرسول (ص) في حديث الغدير المتواتِر، وعند تسمية الإمام علي بن أبي طالب (ع)، قال: «ولن يفسِّر ذلك لكم إلّا من أنا آخذ بيده وشائل بعضده»[2].

نعم؛ فالآيات القرآنية المتحدّثة عن القسط التي كادت أن تزول من المسامع تحوّلت إلى صرخات وبلغتْ أسمى القلل وأعمق السهول ولربّما سمعتها النجوم، بواسطة «نهج البلاغة» وبصوت صاحبه (ع)!

المحور العاشر: النهضة الحسنية

ما يستحقّ الاهتمام في حياة الإمام الحسن المجتبى (ع) هو حركته ونهضته؛ لذلك نجد أنّ المؤرّخين البارعين في القرون الإسلامية الأولى القريبة من عهده (ع) من الذين كانوا قريبي العهد بالمحدّثين والرواة، نجدهم قد كتبوا مؤلّفات باسم «نهضة الحسن»، وذلك لوضوح صورة هذه النهضة عندهم لقرب عهدهم أو لقلّة الوسائط بينهم وبين تلك الأحداث التي

---

(1) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج3، ص77.

(2) الأميني، **الغدير في الكتاب والسنّة**، ج1، ص215.

صنعها هذا الإمام الخالد. ومن هؤلاء المشار إليهم هشام بن سائب الكلبي (ت 205 هـ.ق.)، وإبراهيم بن محمد الثقفي (ت 283 هـ.ق.)، مضافًا إلى ما كتبه الطبرى وابن الأثير.

لقد حاول أصحاب هذه المؤلّفات أن يبحثوا عن عدم النجاح العسكري للنهضة الحسنية، وما هي الأحداث التي أدّت إلى ذلك، ومن المعروف تاريخيًّا أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي سدّ أبواب النجاح في وجه هذه النهضة، بأساليب مختلفة تكشف عنها مصادر التاريخ المعتبرة لدى عامة المسلمين وخاصّتهم. وإنّ الضغوط المفروضة والأضرار النفسية والمالية التي تكبّدها أتباع مدرسة أهل البيت (ع) في الحروب الثلاث (الجمل وصفّين ونهروان) قد منعته من تحقيق مشروعه، واضطرّ إلى المهادنة والتوقّف عن العمل العسكري؛ بهدف الحفاظ على حملة ثقافة مدرسة الإمامة، واضطرّ إلى الصلح مكرهًا.

بعد هذه المقدمة الموجزة أذكّر بأنّ روح النهضة الحسنية وجوهرها، هي مواجهة حكم الطاغين البعيد عن العدالة وعن تطبيقها، وقد رُوِي عنه قوله: «أيها الناس إنّ معاوية زعم أني رأيته للخلافة أهلًا ولم أرَ نفسي لها أهلًا، وكذب معاوية. أنا أولى الناس بالناس في كتاب الله وعلى لسان نبي الله، فأقسم بالله لو أنّ الناس بايعوني وأطاعوني ونصروني، لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها...»[1]. وورد عنه في سياق الحديث عن الفظائع الاجتماعية التي يرتكبها معاوية: «يقسم المال في أهل ولايته، ويمنع من هو أحقّ به، ويجعل المال بين أنصاره دولًا»[2]. فهذه الأقوال وغيرها تدلّ على أنّ النهضة الحسنية من المحاور والمؤشّرات الدالّة على ضرورة تطبيق العدالة القرآنية في المجتمع الإنساني؛ ليكون مجتمعًا قرآنيًّا.

---

(1) الطبرسي، **الاحتجاج**، ج2، ص8.

(2) المصدر نفسه، ص70.

المحور الحادي عشر: عاشوراء

واحدة من أهمّ الخطب التي ألقاها أسوة الأحرار وإمام أهل العدالة، تلك الخطبة التي خصّصها للحديث عن العدالة، وذلك في سياق واقعة عاشوراء. وتشير هذه الخطبة إلى عدم التزام نظام الحكم في دمشق بمعايير العدالة، فقبل حادثة عاشوراء كتبت شخصيتان من وجهاء الشيعة المرموقين، وهما حبيب من مظاهر وسليمان بن صرّد الخزاعي، رسالة إلى الإمام الحسين (ع) وطالباه بالمجيء إلى العراق لحلّ مشاكلهم وتحقيق العدالة بين ظهرانيهم، ومن أجل قطع أيدي الناهبين لثروات المسلمين من بني أمية وإعادة الحق إلى أصحابه.

وأوصي القرّاء الأعزّاء بقراءة كتاب «قيام جاودانه» (النهضة الخالدة) بتؤدة وأناة. وقد بينت في هذا الكتاب مأساة عاشوراء ودعوت في كتاب آخر لي إلى قراءة العزاء على عاشوراء نفسها وإقامة عاشوراء لها؛ لأنّ الإمام الحسين (ع) استُشهِد في ذلك اليوم، ثمّ أتى من قتل شهادته بعد ذلك وجعلها جزءًا من التاريخ، فعاشوراء استُشهِدت بعد الإمام الحسين (ع)، ويبدو أنّ كلّ عاشوراء لها شهيدان، يستحقّ كلٌّ منهما إقامة المأتم ومجالس التعزية له.

وقد مرّت على العلاقة بين الأرض والشمس أيام كثيرة ربّما لا يعلم عددها إلا الله، ومن هذه الأيام التي أشرقت فيها الشمس على أرضنا، لم يكتمل شروق الشمس ولم يصل يومها إلى حدّ البلوغ إلا في أيام ثلاثة، هي: يوم بعثة الرسول (ص)، ويوم الغدير، ويوم عاشوراء، واليوم الرابع الذي ننتظره هو يوم ظهور الإمام المهدي (ع).

فليلة عاشوراء هي الليلة التي أسري فيها بالإنسان على معراج الصلاة إلى لقاء الله، ويوم عاشوراء هو اليوم الذي فتح أبواب العرش الإلهي أحضانها لاستقبال الإنسان الأرضي. فقد نوديَ في يوم عاشوراء بالتوحيد والعدالة ليس بالكلمات بل بالدماء الزكية، ولأجل هذا ندّعي أنّ هذا اليوم هو من الأيام المحورية في الدعوة إلى العدالة.

المحور الثاني عشر: الصحيفة السجادية

نُقِل عن الإمام الحسين (ع) قوله: «كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات». هذه الذئاب الشرسة هي بنو أمية ومعسكرهم، الذين فعلوا ما فعلوا، في كربلاء سنة إحدى وستّين للهجرة. وبعد تلك الحادثة حاولوا إخفاء ذكر الإمام الشهيد (ع) بدعايتهم المضلّلة، وبقوّتهم العسكرية، وبأموالهم التي كانوا يشترون بها الضمائر الرخيصة. ألم يحكم قاضيهم بأنّ الحسين (ع) قد خرج عن الدين فدمه هدر؟! وقد سبّب هذا الدم الطاهر مشاكل للظالمين وأدّى إلى انهيار ذلك النظام الطاغي، فكانوا يحاولون منع تأثير هذا الدم في الإطاحة بحكم الظالمين وبناء المجتمع القرآني؛ ولكي يخمدوا هذا البركان العظيم. وقد ألقيت مهمّة عاشوراء على كواهل دعاتها الذي أكملوا مسيرتها، وقد أدّوا مهمّتهم في اتجاهين:

1 ـ الحركة قصيرة الأمد: تحقّقت هذه الانطلاقة بقافلة الأسرى والخطب الساخنة لبطلة كربلاء زينب (ع) عندما هتفت في بلاط يزيد بن معاوية، بندائها الرنّان وقولها له: « أمن العدل يا ابن الطلقاء» ومن بعد ذلك خطبة الإمام السجاد (ع) في جامع دمشق.

2 ـ الحركة طويلة الأمد: وهي الحركة التي قادها وأدّاها داعية عاشوراء الذي أدّى مهمته كالأنبياء، والذي كان تجسيدًا إنسانيًا للفضائل، وكان مكرّمًا بين الناس كالكعبة عندما يحضر فيهم، وعلى حدّ قصيدة الفرزدق كانت الكعبة تشتاق إليها، كما يشتاق إليها. بلى، عاشوراء تستحقّ أن تُخلَّد في سفرٍ خالدٍ.

وقد استطاعت الصحيفة السجادية تأمين هذا الخلود، واستطاعت أن توصل معاني ذلك الدم الطاهر الذي أُريق على أرض كربلاء إلى جميع الأجيال والعصور والأقطار. فصار صدى عاشوراء يتردّد في الآفاق، وعملت الصحيفة على تفسير ذلك اليوم في كتاب ظهرت كلماته من قطرات ذلك الدم الطاهر. وكشفت الصحيفة عن البعد الملكوتي في الإنسان.

فبعدما كادت الملحمات البشرية كـ «الإلياذة» و«الشاهنامه» تكون النموذج الأشهر للخلود بين النصوص التي دوّنها الإنسان، رسمت الملحمة الربانية لعاشوراء سطورًا على قمّة الشمس، وأقامت علاقة الإنسان بجميع الحقائق، فالإمام الحسين (ع) أخرج القرآن والعترة من المعزل المفروض عليهما، وأظهر سرّ «حسين مني وأنا من حسين»، وأقيمت عاشوراء لإزالة الظلم والقضاء على الظالمين من أتباع يزيد وغيرهم، وذلك كلّه بواسطة الصحيفة السجادية المباركة التي تولّت بيان أهداف عاشوراء القرآنية. وتحوّلت إلى الميثاق التربوي لهذا الكتاب العظيم، وصارت معيارًا لبناء الإنسان والمجتمع وفق تقييم القرآن لهما. وأدانت كلّ انحطاط وسقوط وغفلة عن الفضيلة والإنسانية والمواساة. وملأ طنين هذا الكتاب آفاق المشاعر الإنسانية، فأصبحت الصحيفة محورًا من محاور تطبيق العدالة. لكن من المؤسف أنّ هذه الصحيفة لا تزال مجهولة إلى الآن.

المحور الثالث عشر: معيار التولّي

ثمّة مذاهب ومدارس فكرية، وثمّة مصادر لهذه المذاهب وكلمات مؤسّسيها. وفي الساحة الإسلامية عندنا إلى جانب القرآن والسنّة النبوية، تعاليم الأوصياء المعصومين (ع) وبنظرة فاحصة إلى هذه المصادر نكتشف أنّ العدالة هي الركن الركين لتعاليم الأئمّة (ع).

- يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[1].

- ويقول الرسول (ص): «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة»[2].

- الغدير يعني سلطة العدالة.

- الخطب الفاطمية تعني التفسير القرآني للعدالة.

---

(1) سورة النحل: الآية 90.

(2) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج72، ص352.

ـ ونهج البلاغة هو صرخة العدالة الإنسانية.

ـ والنهضة الحسنية والصلح المفروض يعني الحفاظ على جذور مدرسة العدالة والمنادين بها.

ـ وعاشوراء هي شمس العدالة التي لا ينبغي أن تغيب.

ـ والصحيفة السجادية هي الملحمة الخالدة للإنسان العادل.

ـ وكلام الإمام الصادق (ع) في تعريف العدالة هو أعلى قمّة يمكن أن يبلغها الإنسان في مجال تحقيق العدالة وتطبيقها.

والآن وبعد هذه الإشارات أنعموا النظر في هذا الحديث عن الإمام الباقر (ع) الذي يكشف عن رسوخ قدمه في ميدان التربية وعظيم منزلته فيها؛ إذ يقول في تفسير الآية الشريفة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1]: «ولاية علي بن أبي طالب (ع)، فإنّ اتّباعكم إياه وولايته أجمع لأمركم وأبقى للعدل فيكم»[2].

فمعيار التولّي الذي يعني استمرار التشيع الحقيقي، واتّباع الإمام علي (ع)، وسائر الأئمّة في جميع الأعصار في ظهور الإمام العادل، وفلسفة الإمامة وسرّ الولاية كلّها في العدالة وتطبيقها.

المحور الرابع عشر: الاعتقاد بظهور الحجة

ليس ظهور الحجة الإمام مهدي (عج) إلا لأجل ظهور العدل في الآفاق والأنفس! وهل الانتظار إلّا للاحتجاج على الظلم والظالمين؟ وهل الاعتقاد بظهور الحجة إلّا للعدالة وتطبيقها؟ ففي عصر حكم المنتظرين لظهور تلك الشمس المضيئة لا بدّ من تطبيق العدالة حتّى يكشف الانتظار عن صدق المعتقد. وتوفّر الأرضية المناسبة لأجل تطبيق العدالة بيد الإمام

---

(1) سورة الأنفال: الآية 24.

(2) القمي، **تفسير القمي**، ج1، ص271.

العادل الذي يظهر ليملأ الأرض قسطًا وعدلًا. إنّ تطبيق العدالة في عصر الحكم القرآني للإمام المهدي (عج) هو المعنى الحقيقي لهذا التطبيق، حتى إنّه عليه السلام بعد ظهوره يأمر بأن ينادى في المسجد الحرام كي يبتعد كلّ من يطوف ندبًا عن الحجر الأسود وجوانب الكعبة، حتى يتيسر لمن يطوف طوافًا واجبًا أن يؤدّي طوافه ويتمكّن من استلام الحجر[1].

وكذلك ورد في الأحاديث أنّ الإمام المهدي (ع) يقسّم الأموال بين الناس بالسوية حتى يستغني الجميع ولا يبقى فقير مستحقٌّ للزكاة[2].

المحور الخامس عشر: عالمية الإسلام

الإسلام، بحسب، القرآن الكريم، دينٌ عالمي موجّهٌ إلى الناس كافّة. وينصّ الله في القرآن على أنّ النبي الأعظم (ص) مبعوثٌ إلى الناس كافّةً: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[3]. كما يبشّر القرآن بانتشار الإسلام وتحوّله إلى دين عالمي يظهر على سائر الأديان: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[4]، وقد تكرّر هذا المعنى في آيتين أخريين غير هذه الآية من القرآن الكريم[5]. وهي جميعًا تصرح بأنّ الإسلام هو الدين الحقّ ولا بدّ من أن يسيطر على العالم ويتحوّل إلى دين عالمي بالفعل بعدما هو عليه بالقوّة الآن. وهذا ما يتحقّق بإرادة الله، وإن كان ثمّة من يرفض هذا ولا يريده. فالقرآن يعدّ الإسلام دين الهداية، ويعدّه الدين الوحيد الصالح لجميع الناس في كلّ عصر ومصر؛ لأنّ هذا الدين هو الدين الخاتم المعتمد على ركنين أساسين وفطريين هما: التوحيد والعدل.

---

(1) الكليني، **الكافي**، ج4 ص427.

(2) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج52، ص380.

(3) سورة سبأ: الآية 28.

(4) سورة التوبة: الآية 33.

(5) انظر: سورة الفتح: الآية 28؛ سورة الصف: الآية 9.

وفي عصر ظهور الحجّة المهدي (ع) يدوّي صوت العدالة وتطبيقها في أرجاء العالم المعمور. وقد ورد في الأحاديث المرتبطة بهذا العصر أنّ العدالة ستجري في جميع شرايين حياة الإنسان، كما يدخل الهواء في كلّ مكان ولا يبقى للظلم أثرٌ ولا عينٌ[1].

نعم، إنّ العدالة أمرٌ فطري ينسجم ويتطابق مع الطبيعة البشرية، والظلم مضادٌّ للفطرة الإنسانية ولهوية الإنسان. وهذا الأمر بديهي يعرفه الناس جميعًا، ومن أجل هذا يكره الناس الظالمين والظلم، إلا إذا تشوّهت الفطرة وسقطت من أوج الإنسانية إلى حضيض آخر. وسوف ترتكز مهمّة الإمام المهدي على هذا التعلّق الفطري بالعدالة، ويستند إليها لتعميمها على أبعاد الحياة كلّها، ليمتلئ العالم عدلًا. ومن هنا على كلّ مجمتع يدّعي الإسلام وخاصّة إذا كان يعيش حالة انتظار الحجّة المهدي، أن لّا يغفل عن هذا المحور الهامّ وأن يجعل العدالة الهدف الأسمى في جميع أبعاد حياته، ويستوي في هذا الأمر كلّ بعدٍ من أبعاد الحياة الإنسانية، من السياسة إلى القضاء، والاقتصاد، والتربية والتعليم، وغيرها من الفرص والخدمات التي يمكن أن تقدّم في المجتمع المذكور.

المحور السادس عشر: كلمة خاصّة الحجة (عج)

علي بن مهزيار الأهوازي من كبار الشيعة ومن المحدّثين الموثوق بهم، وهو ممّن سعى في نشر ثقافة التشيع وتعاليم مدرسة أهل البيت (ع)، فقد عاصر عددًا من الأئمّة، كالجواد والهادي (ع)، وكان وكيلًا لبعضهم، وقد أثنى عليه الإمام الجواد. وألّف هذا الفقيه المحدّث أكثر من ثلاثين كتابًا استفاد منها العالم الكبير الشيخ المفيد ونقل عنها[2]. وقد رُوِي أنّه تشرّف بلقاء الإمام الحجة (ع) وشكا من شوقه إليه وعدم وجود من يساعده

---

(1) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج2، ص362.

(2) علي النمازي، **مستدركات علم الرجال الحديث**، ج5، ص487.

للوصول إلى الإمام واللقاء به، فقال الإمام: «لا، ولكنّكم كثّرتم الأموال، وتجبّرتم على ضعفاء المؤمنين، وقطعتم الرحم الذي بينكم، فأي عذر لكم؟»[1].

بالنظر إلى هذا الكلام، على كلٍّ منّا أن يسأل نفسه: هل أفكّر في العدالة بهذه الطريقة؟ وهل ألتفت إلى أهميتها ووجوب تطبيقها في حياتي على هذا النحو؟ فهذه الجملة المباركة الواردة في الحديث «أي عذر لكم» لا بدّ من أن يكون لها صدًى في مسامع الحكّام الإسلاميين وأصحاب القرار وأرباب الثروة وأهل الاقتصاد والسوق... وأن تحثّهم على تطبيق العدالة بشغفٍ وأن يلتزموا معاييرها على كلّ صعيد.

المحور السابع عشر: واجب العلماء الصادقين

يذكر الإمام علي (ع) في نهج البلاغة واجب العلماء الذين يستحقّون تسمية العالم بصراحة فيقول: «وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كِظّة ظالم ولا سَغَبِ مظلوم»[2]. وليس هذا الكلام وحيدًا بل ورد في الأخبار والروايات الكثير ممّا يشبهه. منها ما ورد في كتاب تحف العقول، وهو من المصادر المعتبرة التي لا يمكن غضّ النظر عنها.

ولكثرة تواتر هذا المضمون في الأخبار نجد أنّه تحوّل إلى ثقافة عامّة وبديهة من بديهيات الخطاب الفكري بين العلماء. يقول السيد جمال الدين الأفغاني في رسالة وجّهها إلى المرجع الكبير الميرزا الشيرازي:«ووضع لك أريكة الرئاسة العامة على الأفئدة والنهى، إقامةً لدعامة العدل، وإنارة لمحجّة الهدى».

من هذه الكلمة الحكيمة الرشيدة والمشحونة بالالتزام والمسؤولية يمكن

---

(1) الآمدي، **غاية المرام**، ص779؛ محمد رضا حكيمي وآخرون، **موسوعة الحياة**، ج6، ص460.

(2) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج1، ص36.

أن نفهم جيدًا أنّ الطريق الواضح للهداية الإلهية الحقيقية هو تطبيق العدالة بشكل عام. وهذا هو المقصود من «العدالة حياة الأحكام» التي أكّدناها مرارًا، فالسبيل إلى هداية المجتمع، وخاصّة الشباب منهم، واستمرار الهداية في العقيدة والعمل هو تطبيق العدالة.

في هذه الرسالة المشار إليها والمشحونة بالحماس والمشاعر واليقظة والصحوة وردت نقاط هامّة بخصوص الدين والحفاظ عليه في المجتمع، نشير إلى سطور أخرى منها نحتاج إليها اليوم: «إنّ الأمّة الإيرانية بما دهمها من عراقيل الحوادث التي آذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين وتطاول الأجانب على حقوق المسلمين، ووجوم الحجّةِ الحقّ (إياكَ أعني) عن القيام بنصرها، وهو حامل الأمانة والمسؤول عنها يوم القيامة، قد طارت نفوسها شعاعًا، وطاشت عقولها وتاهت أفكارها ووقفت موقف الحيرة، وهي بين إنكار وإذعان وجحود وإيقان، ولا تهتدي سبيلًا، وهامت في بيداء الهواجس، في عتمة الوساوس، ضالة عن رشدها لا تجد إليه دليلًا، وأخذ القنوط بمجامع قلوبها وسدّ دونها أبواب رجائها، وكادت تختار، يأسًا منها، الضلالة على الهدى، وتعرض عن محجّة الحق وتتّبع الهوى»[1].

في هذه الكلمة الدينية والاجتماعية والسياسية والثورية الحكيمة ثمّة ملاحظات ونقاط هامّة جديرة بالاهتمام:

1 ـ واجب علماء الدين هو رفع الصوت في وجه كلّ أشكال الظلم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. والوقوف في وجه التمييز والجور.

2 ـ إنّ ظهور التكتّلات الحزبية والخلافات من آثار سلطة الاستبداد.

3 ـ إنّ عوائق التطوّر الفردي والاجتماعي في المجتمع الديني والتراجع عن الدين والعمل به، تعود إلى صمت العلماء، عن مواجهة الظلم والظالمين.

4 ـ في هذا الخصوص، ولأجل هذه الآثار المدمّرة لا فرق بين أن يكون

---

(1) محسن الأمين، **أعيان الشيعة**، ج4، ص214.

الظالمون للشعب من الأثرياء والمترفين والانتهازيين وعبّاد الربح والثروة، من الداخل أو من الخارج؛ لأنّ الشعب في كلتا الحالتين يعاني الظلم والتمييز، ويكابد ضيق العيش وشحّ الموارد، وتداس حقوقه وتنتهك كرامته دون أن يجد ناصرًا ولا معينًا.

5 ـ الإحباط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والاقتصادي يؤدّي إلى زعزعة معتقدات الناس وخروجهم عن نطاق الدين والعمل بأحكامه، وإن اختلفوا في حدود هذا الخروج ومقداره.

6 ـ وأخيرًا قارنوا بين هذه الكلمات وما صدر عن الإمام الحجة (ع) خطابًا لعلي بن مهزيار الأهوازي، حيث أشار إلى أنّ تكاثر الأثرياء يسبّب حيرة الفقراء، فيضلّون إلى كلّ جانب بغية الحصول على ما يسدّ حاجتهم.

المحور الثامن عشر: رفع التميز (الإفراط والتفريط الاقتصاديان)

التكاثر والترف مشكلتان كبيرتان تعاني منهما الإنسانية. والتكاثر والترف يعنيان جمع الثروة الإفراط في جمع الثروة والتفريط في إنفاقها على ما يستحقّ وما لا يستحقّ، وهما مظهر من مظاهر الخلل الطبقي والاقتصادي في المجتمع. حيث تعيش أعداد كبيرة من الناس على خطّ الفقر أو تحته، دون أن ينالوا نصيبهم من الثروات العامّة، ودون أن يفكّر المترفون في العمل على تغيير أوضاعهم الاجتماعية.

من هنا اتّخذ الإسلام تدابير احترازية عدّة للحيلولة دون بروز هاتين الظاهرتين في الحياة الإنسانية، وهو ما يسمّى بالعدالة والاعتدال أي مجانبة حدّي الإفراط والتفريط على صعيد الاقتصاد. ولا يتمّ ذلك إلا باعتماد نظام اقتصادي عادل، وإقامة علاقات اقتصادية سليمة. والمصطلح القرآني المعبّر عن هذا المعنى هو المجتمع «القوام بالقسط». ومن التدابير الاحترازية التي اعتمدتها الشريعة الإسلامية القوانين الضريبية التعديلية التي تهدف إلى ردم الهوّة الاقتصادية الفاصلة بين الناس. والهدف النهائي في هذا المجال هو

محاربة التكاثر والترف، ورفع الفقر أو الحدّ منه على الأقل. وهذا يعيدنا إلى قول الإمام علي (ع) الذي ذكرناه في المحور السابق؛ أي قوله: «أن لا يقارّوا على كِظة ظالمٍ...»، ونسمح لأنفسنا بإلقاء نظرة تحليلية عليه:

1 ـ كلمة «كظّة» تعبير رمزي يشير إلى جميع أنواع الإفراط والتفريط، حسب ما يدل عليه هذا اللفظ من مضمون ومفهوم، فإنّ هذه الكلمة تدل بحسب معناها الحرفي على امتلاء البطن والإكثار من الأكل. وكلمة «سغب» تعني الجوع الشديد، وهي كذلك ترمز إلى التفريط في الإنفاق بجميع مظاهره، فتشمل جميع أنواع الفقر والمسكنة والضيق والحرمان.

2 ـ وقد عُدّ الإفراط الاقتصادي والمعيشي ظلمًا وجورًا، كما عُدّ التفريط مظلومية. فلم يرد في الكلام «على كظّة غني أو مسرِف». ولم يستخدم الإمام (ع) عبارة: «سغب مسكين أو فقير»، بل استخدم الحكم الأخلاقي لوصف هذه الظاهرة الاجتماعية وهي التفاوت الطبقي بين الشرائح الاجتماعية، ألا هو الحكم بأنّ هذا التفاوت ظلمٌ.

3 ـ الإفراط والتفريط المعيشي والاقتصادي من أسباب الانحراف والميل إلى المال والثروة، والخروج عن جادّة العدل الذي يحكم الكون كلّه. الأمر الذي يعاكس الإرادة الإلهية التكوينية والتشريعية، ويودي بالمجتمع إلى الدمار والهلاك. وقد وردت الإشارة إلى هذه النتائج في الأخبار والروايات، كما إنّ التجارب الاجتماعية تؤكّد ذلك وتدلّ عليه.

4 ـ الحالة المقابلة لهذا الاختلال هي العدالة التي هي سبب لتوازن الحياة، وتوازن العلاقات الاقتصادية، وتوجيه المجتمع نحو التطوّر والرشد والصلاح، فتحقيق العدالة يؤدّي إلى انسجام الأوضاع الاجتماعية مع البيئة التكوينية التي يريدها الله للمجتمع والإنسان.

5 ـ جريان المال بين أيدي الناس يشبه جريان الماء في المزارع. فإذا جرى بشكلٍ صحيح وفي أرض خصبة أنتج ثمرًا وزرعًا، وإذا جرى بطريقة غير صحيحةٍ أدّى إلى السيول المدمّرة.

المحور التاسع عشر: الثورة

لا يمكن للإنسان أن يعيش وحيدًا، بل لا بدّ له من العيش في مجتمع ليصل إلى رشده. وهذا كله لا يتحقّق إلا بالتعاون بين الجميع: الشعب مع الحكومة، والحكومة مع الشعب. ولكن ثمّة دولٌ يحرم التعامل معها وتجب الإطاحة بها، والثورة عليها؛ لأنّ بعض الدول والحكومات تقف عائقًا في وجه التطوّر الإنساني، وفي مثل هذه الحالات لا بدّ من الثورة لرفع العوائق المانعة من الرشد. وإنّ الهدف الأساس للثورة هو إعادة الأمور إلى نصابها، عبر تحقيق العدالة الاجتماعية، وهذا من بديهيات العمل الثوري التي لا يجهلها ذو مِسكة. فالثورة التي توصف بأنّها إسلامية، هي ثورة من أجل العدالة وإعادة العمل بمعايير القرآن والسنّة.

تحقيق العدالة هو عمود الثورة وعمادها، ولا يمكن أن تتحقّق الأهداف الثورية دون تطبيق العدالة، وتعني الإجراءات الثورية عدم الإمهال ولا الإهمال في تحقيق الغايات المطلوبة منها. وقد طلب الثوّار في المدينة من الإمام علي (ع) أن ينقل بعض مطالبهم إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفّان، فزاره ودار بينهما حوار جاء فيه: «إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي، وَقَد اسْتَسْفَرُونِي بَينَكَ وَبَينَهُمْ، وَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيئاً تَجْهَلُهُ، وَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لاَ تَعْرِفُهُ... فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ...»، فقال له عثمان: « كَلِّم النَّاسَ فِي أَنْ يؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيهِمْ مِن مَظَالِمِهِمْ». فأجابه الإمام (ع) بقوله: «مَاكَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلاَ أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيهِ»[1].

المحور العشرون: الثورة المستدامة

تحدّثنا في المحور السابق عن الثورة. والآن نتحدّث عن الثورة

(1) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج2، ص70.

المستدامة، فما معنى استدامة الثورة واستمرارها؟ إنّ توقّف الثورة يعني انتهاءها وانتفاءها الذاتي. وربّما يؤدّي توقّف الثورة إلى ظهور من وما هو أسوأ من الحالة السابقة التي قامت الثورة ضدّها. فلا بدّ من التفكير في استدامة الثورة، كالتفكير في أصل حدوثها.

وهنا ومن باب إحياء أمر آل محمد (ص) ونشر تعاليم المعصومين (ع) الذين هم عدل القرآن، أنقل حديثًا عظيمًا قاصفًا كالرعد، ومنوّرًا كالبرق في سناه. وهو حديث يضخّ دم الحياة في شرايين المظلومين والمستضعفين. ويحيي النفوس الميتة ويثير الأمل في ظلماتها. ويستحقّ هذا الحديث أن يتحوّل إلى ملحمة من الملاحم العظيمة، في الأدب الثوري. يقول الإمام الصادق (ع)، وهو المنادي بالصحوة لأجل تطوير الإنسان فردًا واجتماعًا:

«تمنّوا الفتنة، ففيها هلاك الجبابرة وطهارة الأرض من الفسقة»[1].

الثورة إذًا، وبحسب الصادق من كلام الصادق (ع) دورها أن إهلاك الجبابرة، واستئصالهم وتطهير الأرض من رجس فسقهم. ودوام الفتنة في هذا الحديث لا يعني شيئًا آخر غير الدعوة إلى استمرار الثورة ودوامها لمتابعة أهدافها وتحقيق غاياتها.

المحور الواحد والعشرون: مشروعية نظام الحكم وعدم مشروعيته

عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال في حديث طويل يذكره الفقهاء عادةً في باب البحث عن المكاسب المحرّمة: «فإحدى الجهتين من الولاية ولاية ولاة العدل الذين أمر الله بولايتهم وتوليتهم على الناس... فإذا صار الوالي والي عدل بهذه الجهة فالولاية له والعمل معه ومعونته في ولايته وتقويته حلالٌ محلّلٌ...وأما وجه الحرام من الولاية فولاية الوالي الجائر وولاية ولاته...»[2].

---

(1) ورّام، **مجموعة ورّام**، ص406.

(2) الحرّاني، **تحف العقول**، ص242.

المحور الثاني والعشرون: معيار ولاية الأمر

يقول الإمام علي بن أبي طالب (ع): «لا يصلح الحكم ولا الحدود ولا الجمعة إلّا بإمام عادل»[1].

المضمون الصريح لهذا الحديث هو أنّ المجتمع القرآني، أي المجتمع القائم بالقسط، لا يتحقّق إلّا في ظلّ النظام العامل بالعدل.

وفي حديث يشتمل على التعاليم الأساس في فلسفة التوحيد والفلسفة السياسية يقول أمير المؤمنين (ع): «اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، وأولي الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان»[2].

هذا هو المعيار، وعليه فالحاكم والحكم الإسلاميان في زمن الغيبة، ينبغي أن يكون نيابة عن الإمام المعصوم، ويقتضي الاتّصاف بهذه الصفة العمل بسيرته في الحكم والتزام حدود العدالة. ومن هنا لا بدّ من الاستناد إلى الأحاديث الكثيرة التي تبين نظام الحكم الإسلامي والإمامة، واعتمادها معيارًا للتمييز بين الحكم الإسلامي الحقيقي وبين الادّعائي، حتى لا يسبّب الخطأ في التشخيص انحرافًا في عقيدة عامّة الناس، وحتى لا يكون ذلك ذريعة في أيدي المعارضين للإسلام ولحضور الدين في المجتمع، يؤيدون بها موقفهم المعارض هذا. ولكي لا تتحوّل الأخطاء التي تُرتكب باسم الدين، دليلًا على عجزه عن إدارة المجتمعات المعاصرة بالطريقة الصحيحة.

وقد اهتمّ كبار العلماء المسلمين بهذا الموضوع وجمعوا الأحاديث الكثيرة في هذا المجال، ومنها ما جاء في كتاب الحجّة من كتاب الأصول من الكافي. وقد خصّص العلامة المجلسي قسمًا معتدًّا به من كتاب بحار الأنوار للأحاديث والأخبار الواردة في الأئمة وفي ما يرتبط بمجال القسط والعدل، وقد اختار العنوان الآتي لهذا القسم من كتابه: «باب أنهم (ع)

---

(1) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج86، ص256.

(2) الكليني، **الكافي**، ج1، ص81

وولايتهم، العدل والمعروف والإحسان والقسط». فالآيات والأحاديث في هذا المجال كثيرة وأهمّيتها عظيمة، ومن أسباب إقبال الناس على الدين أو إعراضهم عنه نمط السلوك العملي للحكومات والدول التي تتخذ من الدين عنوانًا لها ومن الأئمّة الطاهرين شعارًا وقدوةً.

وفي هذا السياق عمد مؤلّفو كتاب «الحياة» ولأجل لفت الانتباه إلى هذا الأمر الخطير والمصيري الذي له دور مهمّ في مصير الدين ويؤثّر عليه تضييعًا أو حفظًا، عمدوا إلى تخصيص أبوابٍ في هذا الكتاب، للحديث عن مواصفات الحكم الإسلامي ومهامّه. مضافًا إلى ما أوردوه في الكتاب من فصول مخصّصة لأحاديث العدل والمساواة ومكافحة التكاثر والفقر.

المحور الثالث والعشرون: بقاء الحكم

لا شكّ في أنّ بقاء الحكم رهنٌ بتطبيق العدالة. يقول الإمام علي (ع): «ما حُصّن الدول بمثل العدل»[1].

نعم؛ فالحكم بمعناه الصحيح هو إدارة شؤون المجتمع في مختلف جوانبه من أجل تطوّر أعضائه، ومن أجل ازدهار المجتمع، وبهدف الحفاظ على كرامة الإنسان وصون قدسية القيم، فإذا لم تتحقّق العدالة لا تستحقّ الدولة المسمّاة إسلامية شرف هذه التسمية؛ إذ لا يكون فعلها حينها إلّا فرض السلطة والظلم ولو كانت متسترّة بأغطية وبذرائع. كتب الإمام علي (ع) إلى واليه في البصرة: «فأرغب راغبهم بالعدل عليه والإحسان إليه، واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم، وانتهِ إلى أمري ولا تعده، وأحسن إلى هذا الحي من ربيعة، وإلى كلّ من قِبَلك ما استطعت إن شاء الله»[2].

---

(1) الآمدي، **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص309.

(2) هادي كاشف الغطاء، **مستدرك نهج البلاغة**، ص133.

المحور الرابع والعشرون: عزّة الأمّة

الأمّة التي يعاني الظلم كلّ أعضائها أو أكثرهم، والتي لا تقوم دولتها بالقسط، بل تمارس الظلم والتمييز على الناس، فهي أمّة لا تبلغ سنّ الرشد، وسوف تبقى ترزح تحت نير الذلّ والهوان. وعلى العكس من ذلك تمامًا الأمّة التي يعدل فيها ولاة أمرها، فعند ذلك يجب عليها طاعتهم وهي أمّةٌ تصل إلى العزّ الذي لا يضام، وتزداد عزًّا بزيادة طاعتها لولاة أمرها، ومن هنا يقول الإمام موسى الكاظم (ع): «طاعة ولاة العدل تمام العزّ»[1].

المحور السادس والعشرون: إحياء أحكام الدين

الإمام علي بن أبي طالب هو العالم الأكبر بأحكام الدين وجوهر الإنسان وطريقة الحياة وتحقيق أحكام الدين بعد الرسول (ص). وهو الحافظ لحدود أحكام الله وأشفق الناس بالبشرية وسعادتها، وأعلم الناس بالدين وأسراره. وقد اتّضح مبلغه من العلم في أذهان عامّة المسلمين إلى حدٍّ جعل أحد علماء أهل السنّة وهو الفخر الرازي يقول عنه: «من اتّخذ عليًّا إمامًا لدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى في دينه ونفسه»[2].

وهذا الإمام الذي يصفه الفخر الرازي بهذا الوصف يقول: «العدل حياة الأحكام».

وإنّ هذا الحديث يكفي للدعوة إلى العمل بالعدل والتزام العدالة في شؤون الحياة كلّها، إذا توفّرت أذنٌ واعية، وإذا كان ثمّة من يفكّر في أمر الدين وحفظه، ولا يكتفي بالهتاف والشعارات الرنّانة ويستغني بسماع هذه الشعارات من الطبقات الاجتماعية المخلصّة وبخاصة من الشباب وطلبة

---

(1) الحراني، **تحف العقول**، ص287.

(2) الفخر الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج1، ص207.

الجامعات. بلى حسبنا هذا الحديث هاتفًا بالعدالة بين ظهرانينا، لكي نقدّمها على غيرها من الأهداف والغايات.

فحياة الأحكام تعني تطبيقها في حياة الناس لهم وعليهم، ومشاهدة آثارها في تصرّفات الحكّام والمسؤولين وأهل القرار. وهذا يشمل ساحات عدّة كالقضاء والإدارة والتعليم وغيرها، ولا تحيا الأحكام ولا يبقى ذكر الشريعة خالدًا إلّا بتطبيق العدالة والعمل بها.

المحور السابع والعشرون: التقوى

يعرّف القرآن الكريم نفسه في السورة الثانية من سوره بأنه كتاب هداية لأهل التقوى. وأهل التقوى هم الذين يستفيدون حقّ الاستفادة من هذا الكتاب الخالد، والتقوى ليست شعارًا يرفع وإنما هي ممارسة وأمر يتجلّى في العمل. وأقرب طرق الوصول إلى التقوى العمل بالعدل والتزام العدالة: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[1].

ويقول الإمام السجاد (ع) في الصحيفة السجادية: «وألبسني زينة المتقين في بسط العدل»[2].

فالتطبيق الشامل للعدالة في حقّ جميع الأفراد والأسر والجماعات في المراكز المدنية وفي الأرياف البعيدة هو الطريق الأمثل للاتّصاف بالتقوى.

المحور الثامن والعشرون: حفظ الدين بين الشرائح الاجتماعية

لقد ورد في أحاديث النبي والإمام علي (ع) والإمام الصادق (ع) أنّ الفقر قريب من الكفر؛ بل جزء منه أو الفقر سببٌ لسوء الظنّ بالدين أو الإعراض عنه أو ترك العمل به. ولأجل هذا لا بد من العمل على استئصال

---

(1) سورة المائدة: الآية 8.

(2) علي بن الحسين (ع)، **الصحيفة السجادية**، الدعاء 20.

الفقر من المجتمع كي لا يكون ذريعة ومقدّمة للإعراض عن الدين، وأولى الخطوات لمكافحة الفقر تحقيق العدالة الاقتصادية.

وإذا كانت الوحدة والوئام أمورًا مرغوبًا فيها وضرورية للمجتمع، فلا بدّ من أن تنبع هذه الأمور من باطن الناس وفي أوساطهم، وهذا الأمر لا يتحقق إلا بنشر العدالة بينهم والعمل بها فيهم. وسوف نعود إلى هذا الأمر في المحور الأربعين من كلمات السيدة فاطمة الزهراء (س). وأوّل أشكال الوحدة التخفيف من حدّة التفاوت الطبقي على الصعيد الاقتصادي بين الناس، وهذا الأمر، يوفّر بالحدّ الأدنى، وحدةً ظاهريةً تفضي إلى الوحدة في مستويات أعمق. ثمّ إذا كان المؤمنون إخوة كما يقرّر الله في القرآن الكريم، فإلى أي حدٍّ يقبل التفاوت بين الإخوة في العيش والأوضاع الاقتصادية؟

المحور التاسع والعشرون: البناء والعمران

يبدأ البناء والعمران في المجتمعات السليمة من بناء الإنسان؛ وذلك على صعيد الجسم والنفس، وعلى مستوى حفظ سلامة الجسوم واعتدال النفوس وهدوئها واستقرارها المعنوي، الأمر الذي يرفع أسباب التوتّر والقلق من المجتمع والحياة. وكلّ هذه الأمور تتوقّف على تطبيق العدالة. فإذا لم تؤمّن الأوضاع الجسدية والنفسية من حيث الإمكانات المعيشية والدراسية والأسرية، ومن جهة تأمين المسكن اللائق والتخفيف من الخوف والقلق على المستقبل. إذا لم تُحفظ هذه الأمور فهل يمكن الحديث عن عمرانٍ وعمارة وبناءٍ؟ وإذا ادّعى مدّعٍ أنّ العمران والبناء هو الذي يوصل إلى العدالة، فالردّ هو أنّ تطبيق العدالة طريق إلى العمران، وأما جعل العمران والبناء هدفًا، فإنّه يضحّي بالعدالة ويفتح أبواب التمييز؛ ولأجل هذا يقول الإمام علي (ع): «ولا يكون العمران، حيث يجور السلطان»[1].

(1) الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص350.

فالعمران دون تطبيق العدالة له أثرٌ إيجابي على عيش طبقة محدّدة من الناس، هي طبقة الحاكمين الجدد. وهو يقدّم فرصةً للأثرياء والأغنياء لبلوغ أمانيهم، وأمّا الشريحة الفقيرة وهي الشريحة الأوسع في أكثر المجتمعات فلا ينالها من نعمة العمران إلا القليل. وهذا ما يلاحظ في المدارس الاقتصادية الغربية من الرأسمالية والليبرالية والإمبريالية.

أمّا بالنسبة إلى المجتمع القرآني والثورة الإسلامية فلا يمكن قبول هذا النمط، فأعظم العمران يبدأ بتطبيق العدالة وخاصّة في ثورة لا بدّ فيها للجميع من أن يفكّروا في عمران ثوري. فأوّل خطوة نحو العدالة ـ كما أشارت السيدة فاطمة الزهراء ـ هو تهادي القلوب (المحور الأربعون)، وتطبيق العدالة حتى يرغب الجميع من صميم قلوبهم في العمران، وحتّى تصيب آثاره وثماره كلّ شرائح المجتمع وطبقاته.

عندما يدبّ اليأس في قلوب شرائح اجتماعية واسعة وخاصّة بين الشباب، تزداد فرص الدعاية المضلّلة وتُفتح أبواب القلوب والعقول على مصاريعها لمصلحة من يريد شرًّا بالإسلام والمسلمين، وعلى العاملين الاجتماعيين في هذا المجال الالتفات إلى أنّ المشكلة قد تكون فيهم وليس في قوّة الأعداء ولا في جاذبية أفكارهم. ومن هنا علينا بذل الجهد في مراقبة الذات، على حدّ تعبير علماء الأخلاق، لكي لا يخدعنا بريق كلمة «عمران»، وإعمار وما شابههما، وأن نصغي بدل ذلك إلى صوت العدالة الذي يدعونا إلى تقديمه على ما سواه، ولنستمع إلى قول أمير المؤمنين (ع) يهتف بنا محذّرًا: «ما عمّرت البلدان بمثل العدل»[1].

المحور الثلاثون: التربية والتعليم السليمان

زار الإمامَ الصادق (ع) أحدُ المتصدّين لأمر التعليم والتربية، وهو حسان

(1) المصدر نفسه.

المعلّم، وطرح عليه أسئلة حول مهنته وردت في الحديث الآتي:

«سألت أبا عبد الله (ع) عن التعليم فقال: لا تأخذ على التعليم أجرًا. قلت فالشعر والرسائل وما أشبه ذلك أشارط عليه؟ قال: نعم، بعد أن يكون الصبيان عندك سواء في التعليم، لا تفضّلْ بعضَهم على بعض»[1].

إن لهذا المحور أهمّية بالغة، حيث يبين لنا أنّ التعليم والتربية ينبغي أن يكونا متاحَيْن لجميع الناس على حدٍّ سواء، في المجتمع القرآني والجعفري، ولا ينبغي أن يميز في التعليم بين الغني والفقير، بحيث يتعلّم الأوّل ويحرم الثاني. والهدف هو أن يزداد الأغنياء طغيانًا نتيجة قدرتهم على شراء العلم وعجز الفقراء عن تحصيله.

ولا يعني هذا أن يميز بين الطلاب على أساس الاستعدادات والقابليات، مثل تخصيص المتميزين بالذكاء بمدارس خاصّة بهم. فذلك أمرٌ آخر يختلف عن التمييز بينهم على أساس الأوضاع الاقتصادية.

المحور الواحد والثلاثون: العدالة في الأسرة

لاحظوا هذا الحديث: رُوِي أنّ النبي (ص) قال لمن أعطى بعضَ أولاده شيئًا: «أكلَّ ولدك أعطيت مثله»؟ قال: لا، قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»[2].

فإنّ المعايير الإسلامية والتعاليم النبوية، تدعو إلى الالتزام بالعدالة حتّى في الهبات والهدايا في داخل الأسرة. وفي هذا الحديث العظيم عبارة تربوية وبنّاءة أخرى، وهي «اتقوا الله»، التي استُخدمت قبل الأمر بالعدالة بين الأولاد (اعدلوا)، وهذا يدلّ على العلاقة الوثيقة بين التقوى والعدالة في الأسرة وفي المجتمع و... إلخ.

---

(1) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج17، ص154.

(2) الشهيد الثاني، **الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية**، ج3، ص194.

المحور الثاني والثلاثون: الإصلاح الاجتماعي

يمكن لأحد أن يقول إنّ تطبيق العدالة لا يتيسّر في كل مكان وزمان، فإنّ لتطبيق لعدالة زمانًا ومكانًا محّددين ويحتاج إلى توفّر الظروف الخاصّة. فعلينا أن نقوم بإصلاح المجتمع أوّلًا ثمّ نبدأ بالخطوات اللاحقة. وهذا الكلام جيدٌ ونوافق عليه مبدئيًّا؛ ولكن لا بدّ من التفكير في الخطوة الإصلاحية الأولى، إذا كان أصحاب هذا الكلام من أتباع علي (ع) حقًّا، فإنّهم ملزمون بمقتضى مودّتهم لعلي واحترامهم له، أن يصغوا إلى قوله: «الرعية لا يصلحها إلّا العدل»[1]، وقوله: «جعل الله سبحانه العدل قوامًا للأنام»[2].

المحور الثالث والثلاثون: الأخوّة الإسلامية

يصرّح القرآن الكريم بهذا الأمر فيقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[3]. كيف تتحقّق هذه الأخوّة بين الناس والأفراد والعوائل؟ هل بتطبيق العدالة ووصول الجميع إلى حياة مناسبة وتمتّع العوائل بمختلف حقوقهم في الحياة وبلوغ الكمال والسعادة التي أرادها الله لهم؟ أم بدون تطبيق العدالة وبانتشار التمييز والفوارق العظيمة في التمتع بمواهب الحياة؟ إنّ هذه الفروقات هي سبب الحرمان، والحرمان المادّي يسبّب الحرمان الثقافي والروحي، وهذا بعيد كلّ البعد عن مبدإ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[4].

المحور الرابع والثلاثون: مكافحة التكاثر

التكاثر مصطلح قرآني، يقصد به جمع المال والاستزادة منه والتفاخر به،

---

(1) الآمدي، **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص29.

(2) المصدر نفسه، ص165.

(3) سورة الحجرات: الآية 10.

(4) سورة الحجرات: الآية 10.

وهو بحسب هـذا الكتاب الكريم ووفق الأحاديث الإسلامية ظاهرةٌ مضادّة للقيم الأخلاقية ومعارضة لها، ومن أسباب هدم الدين والإنسانية، وهو من معيقات تطـوّر الإنسان، ومن موجبات حرمانه من الفضائل السلوكية. ويعتبر الإمام الصادق (ع) في حديثه المعروف باسم جنود العقل والجهل التكاثرَ من جنود الجهل والجاهلية التي تؤدّي بالمجتمع إلى قيم مضادّة للإسلام أي إلى قيم الجاهلية والمجتمع الجاهلي. وتمنع الناس من اتّباع الدين والعقل.

بناءً على ما ذكرناه، فإنّ من الواجب شرعًا وعقلًا معارضة أسباب النكوص إلى الجاهلية ومكافحتها لتهديدها العقل في كل مجتمع. وتطبيق العدالة من أهمّ طرق مكافحة التكاثر. فقد كان الفقهاء القدامى مهجوسين بالبحث عن طرق مكافحة التكاثر، ومن الآليات التي أقرّها الفقه الإسلامي لمحاربة التكاثر الخُمس المتكرّر والزكاة الباطنية التي عدّها بعض الفقهاء واجبةً في بعض الحالات[1].

المحور الخامس والثلاثون: محاربة الفقر

لا يحتاج محور مكافحة الإسلام للفقر إلى أي بيان ولا إلى تقديم الحجج؛ ذلك أنّ الإسلام ذمّ الفقر وعدّه عدلًا للكفر أو مقرّبًا منه. وممّا يدلّ على عناية الإسلام بمواجهة الفقر ومكافحته تلك القرارات المالية المختلفة في الإسلام التي تنقسم بين واجبٍ ومندوبٍ، تهدف جميعها إلى استئصال الفقر من المجتمع. هذا في ما يرتبط بالفقر، وثمّة ما هو أشدّ من الفقر وهو المسكنة فالمسكين هو من لا يجد قوت يومه والفقير هو من لا يجد قوت سنته. والمسكين لا يجوز الانتظار لسدّ حاجته بل تجب المبادرة إلى مساعدته من بيت المال بحسب القدرة والأموال المتوفّرة.

---

(1) محمد رضا حكيمي وآخرون، موسوعة الحياة، ج6، ص41.

ومحاربة الفقر والمسكنة تبدأ بالعدالة والالتزام بمعاييرها، ولا مجال لمحاربة الفقر ما لم ينطلق العمل من العدالة فهي الحدّ الأدنى ومحطّة الانطلاق. ولا يقتصر الأمر على العدالة الاقتصادية بل يشمل الاقتصاد وغيره، والظلم المشهود وغيره.

وقد حدّد الإمام علي (ع) مهمّة السلطة العادلة بأن تنتزع حقوق الفقراء من الأغنياء وتسهم في جبر ضعفهم حتّى لا يكونوا محلًّا لاستغلال الأقوياء في المجتمع.

المحور السادس والثلاثون: مبدأ المساواة

المساواة في الإسلام في بعض معانيها مبدأ أصيل وقاعدة أساس. يقول الإمام الصادق (ع) ناقلًا الحديث القدسي: «إنّ الله تعالى قال: أوجبتُ عشرة أشياء على عبادي:...العاشرة أن يكون هو وأخوه في الدين والدنيا شرعًا سواء».

وقد وردت في هذا الحديث القدسي كلمة الدنيا إلى جانب كلمة الدين معطوفةً عليه بحرف يدلّ على الاشتراك بين شيئين. والمعنى الذي يفهم من الحديث هو أنّ الأصل والحالة المثلى التي يريدها الله للمؤمنين هو تساويهم في أمور الدين وتساويهم في أمور الدنيا ومتاعها.

وقد عملنا في موسوعتنا الحديثية المسمّاة بـ «الحياة» على تخصيص فصلٍ للآيات والأحاديث الواردة في المساواة. ففي الفصل السابع والأربعين من الباب الحادي عشر، أوردنا ما يقرب من اثنين وعشرين أصلًا وقاعدة تدلّ على وجوب المساواة في الأمور الاجتماعية، في عددٍ من أبعاد الحياة الإنسانية. ويمكن لمن رغب بالاستزادة المراجعة[1].

---

(1) المصدر نفسه، ج5، ص123ـ166.

المحور السابع والثلاثون: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أكبر الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بعد الرسول والإمام علي ابن أبي طالب والحسن المجتبى (ع) والإمام سيد الشهداء الحسين بن علي (ع)، وهو الذي نهض بثورته لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكبر المعروف الذي كان يبتغي الأمر به هو «تطبيق العدالة». وأعظم المنكرات التي ثار ضدّها هي «الظلم والعدوان والتمييز والفرق والإثرة» التي كانت تمارسها السلطة الأموية. وقد ثار عليه السلام، وكتب بدمه ملحمة للدفاع عن العدالة الاجتماعية وتحقيقها في أمّة رسول الله (ص)، وقد نجح في أنّه صار منارًا للمطالبين بالعدالة عبر التاريخ.

وقد عبّر شهيد الحرّية والعدالة عن أهدافه بأكثر من صيغة وبيان. وممّا قاله في هذا المجال: «اعتبروا أيها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار... وإنّما عاب الله ذلك عليهم لأنّهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك رغبة في ما كانوا ينالون منهم ورهبة... فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه لعلمه بأنّها إذا أدّيت وأقيمت استقامت الفرائض كلّها هينها وصعبها، وذلك أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الإسلام، مع ردّ المظلوم ومخالفة الظالم وقسمة الفيء والغنائم وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقّها...»[1]. وفي رسالة له إلى أهل الكوفة يخاطبهم فيها بقوله: «فأصبحتم ألبًا على أوليائكم ويدًا لأعدائكم، بغير عدلٍ أفشوه فيكم....»[2].

المحور الثامن والثلاثون: ترسيخ القيم: قيمة الحياة

إذا كنّا نهدف إلى ترسيخ القيم، وقيمة الحياة بمعيار عامٍّ وشامل، فإنّ

---

(1) الحراني، **تحف العقول**، ص169.

(2) المصدر نفسه، ص171.

أفضلَ معيار هو العدالة التي لا يمكن أن تكتمل سائر القيم إلا بها، حيث يصف القرآن الكريم الشرك بأنّه ظلم عظيم، في قوله تعالى على لسان لقمان وفي وصيته لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1]. وهذه العبارة تعني أنّ التوحيد مطلوبٌ لنفسه ومطلوبٌ لأنّه عدلٌ وعدالة، وضدّه ظلمٌ.

ويعدّ الإمام علي بن أبي طالب (ع) تهذيبَ النفس وتزكيتَها مصداقًا من مصاديق العدالة، فهو يقول في وصف أحبّ العباد إلى الله تعالى: «قد ألزم نفسه العدل، فكان أوّل عدله نفي الهوى عن نفسه»[2].

وانطلاقًا من هذه الرؤية، لا يمكن تثبيت القيم ولا ترسيخها في العلاقات الإنسانية إذا لم ترتكز إلى قاعدة العدالة.

فالمجتمع الذي لا تملأه العدالة هو تجمّع من الأفراد يزاحم بعضهم بعضًا، حتّى لو كان بحسب الظاهر منسجمًا وبدا كلّ شيء فيه في مكانه المحدّد.

وقد ورد أنّ بعض الأغنياء قصدوا الإمام عليًّا (ع) بعيد استلامه الخلافة بعد مقتل الخليفة الثالث، وطلبوا منه أن يمنحهم بعض الامتيازات بالاستناد إلى ما قدّموه من خدمات مالية للدولة والمجتمع في العهد السابق، أو أن يزيد نصيبهم من الأموال العامّة. فخطب فيهم ووعظهم وكان ممّا قال: «أيها الناس فلا يقولنّ رجال قد كانت الدنيا غمرتهم، فاتخذوا العقار وفجّروا الأنهار وركبوا أفره الدواب ولبسوا ألين الثياب فصار ذلك عليهم عارًا وشنارًا، إن لم يغفر لهم الغفار؛ إذا منعتهم ما كانوا فيه يخوضون وصيرتهم إلى ما يستوجبون، فيفقدون ذلك فيسألون ويقولون: ظلمنا ابن أبي طالب وحرمنا ومنعنا حقوقنا، فالله عليهم المستعان من استقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا وآمن بنبينا وشهد شهادتنا ودخل في ديننا أجرينا عليه حكم القرآن وحدود

---

(1) سورة لقمان: الآية 13.

(2) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج1، ص153.

الإسلام، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى، ألا وإن للمتقين عند الله تعالى أفضل الثواب وأحسن الجزاء والمآب لم يجعل الله تبارك وتعالى الدنيا للمتقين ثوابًا وما عند الله خير للأبرار، انظروا أهل دين الله في ما أصبتم في كتاب الله، وتركتم عند رسول الله (ص) وجاهدتم به في ذات الله أبحسب أم بنسب أم بعمل أم بطاعة أم زهادة، وفي ما أصبحتم فيه راغبين فسارعوا إلى منازلكم ـ رحمكم الله ـ التي أمرتم بعمارتها...»[1].

هذه لمعةٌ متلألئة من حراسة القيم في سلوك إمام القيم تجاه الذين يخشى على القيم منهم. وهذا الحارس العظيم للقيم له كلمة أخرى لا بدّ من أن يكون لها صدى في بيئة المجتمعات، حيث يقول: «أَجْورُ الناسِ من عَدّ جورَه عدلًا منه»[2].

أخيرًا لا بدّ من القول إنّ قيمة الحياة، بعد الاعتراف بالله تعالى، هي تطبيق العدالة، فقد جاء في إحدى محاورات سقراط وأقريطون الحوار الآتي:

سقراط:... وأحبّ أن أعرف إن كنت أستطيع أن أقول هذا القول في قضية أخرى، وهي أن ليست الحياة حقيقة بالتقدير ما لم تكن قبل كلّ شيء حياةً خيرةً.

أقريطون: نعم، بقي لنا أن نبحث هذه أيضًا.

سقراط: والحياة الخيرة تعادل الحياة العادلة الشريفة، أليس كذلك هذا صحيحًا؟

أقريطون: نعم، إنّه صحيح[3].

المحور التاسع والثلاثون: الاهتمام بأمور المسلمين

دعت الأحاديث المعتبرة الواردة في التراث الحديثي الإسلامي إلى

---

(1) الكليني، **الكافي**، ج8، ص361ـ362.

(2) الآمدي، **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص19.

(3) أفلاطون، **محاورات أفلاطون**، ص128.

الاهتمام بأمور المسلمين، وتعهّد الأبعاد الروحية والمادية من حياتهم. ومن ذلك ما جاء في الحديث عن النبي (ص): «من أصبح ولم يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم»، وهو من أشهر الأحاديث في هذا المجال.

وأي اهتمام وإلمام وتفكير أكثر أصالة وأوسع نطاقًا من التفكير بإقامة القسط ومحاولة تطبيق العدالة على جميع جوانب الحياة الاجتماعية، من أجل سدّ جميع الفراغات التي تفصل بين الطبقات الاجتماعية حتى لا يبقى محرومٌ لا يصل إليه حقّه، ولا عاجزٌ عن الوصول إلى كماله؟

إنّ الاهتمام بشؤون المجتمع والتخطيط للإصلاح الاجتماعي يقتضي تطبيق العدالة. وقد التفت العالِم العظيم الشيخ محمد بن يعقوب الكليني إلى هذا الأمر في كتابه الكافي، وخصّص بابًا منه لهذا الموضوع، وجمع فيه أحاديث مهمّة توجّه إلى هذا الأمر وتندب إليه[1].

المحور الأربعون: مكافحة الجهل

المجتمعات المحرومة من العدالة لا يتمكّن عامّة الناس فيها أو معظمهم من الحصول على حقوقهم المختلفة. ومن هذه الحقوق: الحقوق الثقافية والتربوية، والتمتّع بفرص التعليم والتربية والدراسات العليا، فضلًا عن السفر والاستجمام؛ بل العبادة. فإذا لم يكن التعلّم وشراء الكتب وقراءتها أمورًا متاحةً لكثير من المواطنين، فسوف يبقى الجهل والأمية على حالهما؛ بل سينتشران أكثر فأكثر. وأسباب الجهل وجنوده يقتلعون جذور كلّ تطوّرٍ ونزوع نحو الكمال من قلب الإنسان وجوهره. وبناء على هذا يتبين أنّ مكافحة الجهل والتخلّف الثقافي والعلمي والتربوي، لا تتحقّق إلّا بتطبيق العدالة.

---

(1) انظر: الكليني، **الكافي**، ج2، ص163ـ165.

المحور الواحد والأربعون: الوئام بين الناس

الركيزة الأساس للمجتمع هي الوحدة والوئام بين أفراده. وهذه الغاية لا تتحقّق إلا بالوئام والتوادّ بين جميع الناس، ولا يتحقّق هذا الوئام إلّا إذا نعمت القلوب بالاطمئنان والاستقرار. ولا يتحقّق هذا إلّا بتوحيد الغايات والأهداف، ولا تتوحّد الأهداف إلا إذا كانت في مصلحة الناس جميعًا، والشرائح الاجتماعية كافّةً. بحيث يتمكّنون جميعًا من الحصول على حقوقهم، والحقوق لا تُنال إلا إذا حُفِظت من النهب والسطو عليها، على حدّ ما يشير إليه الكلام المنقول عن الإمام الحسن العسكري (ع)[1].

وهل يتحقق مثل هذه الحالة من الوئام الذي يفضي إلى الطمأنينة والاستقرار الاجتماعي إلا تحت جناح العدالة؟ كلّا وألف كلّا.وعلى هذا الأساس، نطقت السيدة الزهراء (ع) التي لا تنطق إلا على ضوء القرآن حين قالت، معدّدة أهداف بعض القيم والتشريعات: «والعدل تسكينًا للقلوب»[2]. وفي رواية أخرى «تنسيقًا» بدل «تسكينًا»، ولكنّ المعنى لا يختلف كلّ الاختلاف، فالكلمتان تدلّان على معنى هو الوئام أو يفضي إليه. والعدالة والظلم نقيضان أو ضدّان لا ثالث لهما، فإذا انتفت الأولى حلّ محلّها الظلم ولوازمه الاجتماعية المعاكسة لآثار العدالة، ومن ذلك ما يشتّت القلوب ويوهن عراها.

المحور الثاني والأربعون: التجارة الإسلامية

في تراث الإمام علي (ع) عهد كتبه إلى مالك الأشتر، وهو وثيقة قانونية دستورية بل يمكن أن يكون مصدرًا للتشريع الدستوري في عصرنا هذا. وقد أوصاه فيه بوصايا عدّة، وكلّفه بواجبات شتّى منها وصيته في ما يرتبط

---

(1) النيسابوري، **مستدرك الوسائل**، ج2، ص322.

(2) الصدوق، **علل الشرائع**، ج1، ص248.

بالتجارة فقال له: «وليكن البيع بيعًا سمحًا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين»[1].

المحور الثالث والأربعون: حاجات المجتمع البشري العامة

يقول الإمام الصادق (ع): «ثلاثة أشياء يحتاج الناس طرًّا إليها: الأمن، والعدل، والخصب»[2].

فالعدل بحسب هذا الحديث الشريف أحد الحاجات الرئيسة التي تساوي الأمن والخصب في الأهمية، ومن دونه لا تنتظم أمور الناس. بل يمكن القول إنّ الأمن والخصب من غير عدلٍ يؤدّيان إلى عكس المطلوب منهما.

المحور الرابع والأربعون: الاهتمام بحقوق الحيوانات

في الشريعة الإسلامية تعاليم وأحكامٌ خاصّةٌ بالحيوانات والنباتات والأشجار. وقد بينت أحكامها في الكتب الفقهية. والمجتمعات التي تحرم الإنسانية فيها من العدالة، كيف تصل نعمة العدالة فيها إلى الحيوان والنبات؟

ويستفاد من تشريع أحكام خاصّة بحقوق الحيوانات، يصل في بعض الحالات إلى حدّ الإيجاب والإلزام، يكشف عن مطلوبية العدالة مع الإنسان بالأولوية.

وقد أمر الإمام بالعدل في التصرّف مع المواشي التي تأخذ بعنوان الزكاة لبيت المال: «ولا توكّل بها إلا ناصحًا شفيقًا وأمينًا حفيظًا، غير معنّف ولا مجحف، ولا ملغِبٍ ولا متعب، ثم احدِر إلينا ما اجتمع عندك نصيره حيث أمر الله به. فإذا أخذها أمينك فأوعِز إليه ألّا يحول بين ناقةٍ وبين فصيلها، ولا

---

(1) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج3، ص100.

(2) الحراني، **تحف العقول**، ص236.

يمصّر لبنها فيضرّ ذلك بوليدها، ولا يجهدها ركوبًا. وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها، وليرفّه على اللاغب، وليستأنِ بالنقب والظالع، وليوردها ما تمرّ به من الغدر ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جوادّ الطريق...»[1].

وقد أشار إمام العدل والعدالة في خطبة ألقاها حين تسنّم سدّة الخلافة، فحمّل الناس مسؤولية بقاع الأرض والبهائم:

«بادروا أمر العامة، وخاصةَ أحدكم وهو الموت... اتقوا الله في عباده وبلاده فإنّكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشرّ فأعرضوا عنه[2].

المحور الخامس والأربعون: الصحة الجسدية للمجتمع

يتوقّف نشاط المجتمع وحيويته على أمور عدّة منها: الصحة والقوّة الجسديتان لأفراد المجتمع. فالمجتمع، في الحقيقة، أشبه ببناء مترابط الأجزاء.، ترتبط سلامته بسلامة أجزائه، وقوّته بقوّة هذه الأجزاء. ومن هنا كان لا بدّ من توفير الصحّة الجسدية لأفراد المجتمع على صعيد الغذاء والدواء، حتّى يصل المجتمع إلى الحياة الطيبة بل إلى الحياة التي تستحقّ هذا الاسم، وهذا ما يمكن فهمه من كلام أمير البيان علي بن أبي طالب (ع) حيث يقول: «العدل حياة»[3]. وهذا ما يفسّر دعوة الأنبياء إلى العدل: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[4] بعد دعوتهم إلى التوحيد وعبادة الله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[5].

---

(1) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج3، ص25.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص80.

(3) الآمدي، **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص15؛ محمد رضا حكيمي وآخرون، **موسوعة الحياة**، ج6، ص327.

(4) سورة الأنعام: الآية 152.

(5) سورة النحل: الآية 26.

المحور السادس والأربعون: الصحة النفسية للمجتمع

الصحّة النفسية من الأمور الحيوية إلى جانب الصحّة الجسدية، ولعلّها تقع في المرتبة الأولى قبل الصحّة الجسدية؛ على الرغم من ترابطهما وتأثير إحداهما في الأخرى. والمقصود من الصحّة النفسية هو حماية أعضاء المجتمع من كلّ خلل نفسي مثل: القلق، والإحباط، والاكتئاب، وغير ذلك ممّا يعدّ خللًا في التوازن النفسي، وذلك حتّى يتسنّى لكلّ فردٍ الانصراف إلى ما ينبغي الانصراف إليه من عملٍ أو نشاطٍ تترتّب عليه المنفعة والفائدة للمجتمع كلّه. ومن الواضح أنّ ذلكٍ كلّه لا يتحقّق إلا في كنف العدالة. ولا يتأمّن إلا إذا عمّت العدالة المجتمع في جميع أبعاده وجوانبه.

والجهة الأكثر معرفةً بما يصلح للناس على الصعيد النفسي هم الأنبياء والأئمة (ع)، ومن هنا نجدهم عبّروا عن اهتمامهم بالعدالة وانتشارها وعدّوها أمرًا جوهريًّا لاستقرار المجتمع وصلاح حاله.

المحور السابع والأربعون: دعم قوّة العقل في المجتمع

لا بدّ من اتّصاف المجتمع بالحكمة وقوّة العقل. والقرآن الكريم بدوره يؤكّد هذا الجانب والأحاديث تسايره في هذا الشأن. والعقل الذي يدعو إليه القرآن هو العقل الفطري الذي تترتّب عليه آثار أهمّ وأعمق من آثار العقل الفلسفي النظري. فالأوّل هو الذي يسهم في وصول الإنسان إلى حقائق الوحي وتعاليمه.

وخلاصة القول أنّ المجتمع يحتاج إلى عقلٍ سليم وقوي، وهذا لا يتحقّق إلّا في ظلّ العدالة، ولا يخفى على ذي مسكة أنّ بين العقل السليم والجسم السليم ترابطًا واتّصالًا.

المحور الثامن والأربعون: الحفاظ على صحة الأجيال القادمة

لا شكّ في أنّ الحفاظ على الصحّة الجسدية والنفسية للأجيال القادمة

في كلّ مجتمع وتوفير السلامة لهم واجبٌ مؤكّد، فلا بدّ للأجيال الراهنة من أن تتمتّع بالسلامة الجسدية والحيوية النفسية والاتّزان السلوكي، حتى تنتقل هذه المواصفات إلى الأجيال القادمة.

إنّ تطبيق العدالة يمنع من سوء التغذية والمرض ويحول دون اختلال التوازن النفسي والقلق والاضطراب والتوتّر العصبي والتخلّف الفكري والثقافي وضعف الالتزام بالقيم. بينما يسبّب تطبيقها ازدهار المواهب في المجتمع، والحدّ من انتشار الأمراض والإدمان الحاصل بسبب الفقر والفاقة والظلم في المعيشة أو تراجع الإرادة عند الأجيال الراهنة، ويؤدّي إلى عدم هدر قواهم العقلية والجسدية لتنشأ في المستقبل أجيال سليمة وقوية متمتعة بالحيوية والنشاط والفاعلية. ولهذا المحور أيضًا أهمّية بالغة في التأكيد على تطبيق العدالة.

المحور التاسع والأربعون: تحصين الجانب الدفاعي

يقول الرسول (ص): «من عمّ عدله نُصِر على عدوّه»[1].

ويقول الإمام علي (ع): «بالسيرة العادلة يقهر المناوئ»[2].

ويقول الإمام علي (ع): «من عدل في سلطانه وبذل إحسانه أعلى الله شأنه وأعزّ أعوانه»[3].

وتدلّ التجربة والعقل على مضمون هذه الأحاديث الشريفة، وقد ورد هذا المعنى في نصوص أخرى مثل عهد الإمام علي (ع) إلى مالك الأشتر، وبعض أدعية الصحيفة السجادية المباركة.

(1) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج75، ص359، نقلًا عن: محمد رضا حكيمي، **موسوعة الحياة**، ج6، ص498.

(2) الآمدي، **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص146.

(3) المصدر نفسه، ص67.

المحور الخمسون: سيادة الحكم وثقة الناس به

يقول الإمام علي بن موسى الرضا (ع): «إذا جار السلطان، هانت الدولة»[1].

ويقول الإمام علي (ع): «...والثقة منهم، بما عوّدتهم من عدلك عليهم»[2].

المحور الواحد والخمسون: النهي عن ظلم العدوّ

يصرّح القرآن الكريم بالمنع عن ظلم الأعداء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

تدلّ هذه الآية بوضوحٍ على:

- أنّ الوصول إلى التقوى يتوقّف على العدالة (المحور السادس والعشرون).

- تطبيق العدالة من الأعمال الصالحة التي وعد الله عليها بالأجر الجزيل والثواب العظيم.

- الأمر الأكثر إلفاتًا فيها هو النهي عن ممارسة الظلم في حقّ الأعداء.

يقول الشيخ الطبرسي في تفسير الآية المشار إليها: «اعملوا بالعدل أيها المؤمنون في أوليائكم وأعدائكم»[4].

---

(1) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج9، ص31.

(2) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج3، ص97.

(3) سورة المائدة: الآيتان 8ـ9.

(4) الطبرسي، **مجمع البيان**، ج3، ص292.

ولم يفت الأئمة التأكيد على هذا المعنى في تعاليمهم وتوصياتهم؛ إذ يقول ا لإمام علي (ع): «اعدل في العدوّ والصديق»[1]، ويصف الإمام الصادق (ع) المؤمنَ فيقول: «لا يظلم الأعداء»[2].

المحور الثاني والخمسون: نهب أموال المساكين

ورد في أحاديث عدّة معتبرة أن فقر المساكين وفاقتهم وجوعهم وعريهم، ما هو إلا أثرٌ من آثار ظلم الأغنياء والمترفين، وبعبارة معاصرة ما هو إلا نتيجة من نتائج سوء التوزيع في الاقتصاد. فقد روي عن الإمام العسكري (ع) قوله: «أغنياؤهم يسرقون زاد الفقراء»[3].

وفي عصرنا هذا يقول بعض الخبراء العالميين في الفقر وسوء التعذية: إنّ الجوع والفقر لا ينتشران بسبب قلّة الموارد؛ بل ينتشران بسبب سوء التوزيع وسوء إدارة الموارد، ونتيجة الاستهلاك الزائد عند بعض الطبقات الاجتماعية على حساب الفقراء والمستضعفين.

وقد صرّح بهذا الأمر نبينا الأعظم (ص) وأئمة أهل البيت (ع) قبل خمسة عشر قرنًا، على ضوء تصريح القرآن الكريم وتعليمه حيث يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[4].

شرحٌ: ما يعنيه الإمام من سرقة الأثرياء زاد الفقراء وأموالهم ليس السرقة بالمعنى الظاهري القانوني، بأن ينهب الأغنياء أموال الفقراء بالهجوم على بيوتهم وأخذ ما فيها من رزق. فمثل هذا العمل ينزّه الأغنياء أنفسهم عن القيام به، فضلًا عن استغنائهم عنه وعدم حاجتهم إليه. أضف إلى ذلك أن بيوت هؤلاء المساكين لا تحتوي على ما يعجب الأغنياء أو يثير رغبتهم في تملّكه؛

---

(1) الآمدي، **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص65.

(2) الكليني، **الكافي**، ج2، ص47.

(3) النيسابوري، **مستدرك الوسائل**، ج2، ص322.

(4) سورة يونس: الآية 44.

بل المقصود أنّ الاقتصاد العليل وعدم الاهتمام بتطبيق العدالة الاقتصادية والقضائية والغفلة عن المحتاجين المظلومين والعلاقات الاجتماعية والإداريـة والمالية الفاسدة تـؤدّي بالأمر إلى نهب حقوق المحرومين، وحرمانهم من الأوليات التي تتوقّف عليها حياتهم في مجالات الغذاء والصحّة والتربية والتعليم وغير ذلك، فتقصر أيدي المساكين والفقراء عن نيل ما يرغبون في الوصول إليه ويحتاجونه. وهنا أجد من المناسب نقل بضع كلمات عن أحد المؤمنين من الخبراء في الاقتصاد:

1 ـ التضخّم فرحة الأغنياء ومأتم الفقراء. فاذا كان لدى أحد 100 مليون تومان وحدث التضخّم بنسبة 30 ٪ فستبلغ ثروته 130 مليون تومان وستزداد كلفة معيشته مليونًا. ومن جانب آخر، فإنّ صاحب الدخل المحدود من الموظّفين الذي كان راتبه 50 ألف تومان بهذا التضخّم تنخفض قدرته الشرائية إلى 35 ألف تومان.

2 ـ التضخّم ضريبة يوافق عليها الأغنياء بل يقرّونها بالطريقة التي يرونها مناسبةً لهم، ويستوفونها من جيوب الفقراء، وهذا ما يتحقق فعلًا بالتضخّم.

بلى هذا هو معنى قول الإمام (ع): «أغنياؤهم يسرقون زاد الفقراء». وهذا هوالاقتصاد العليل غير العادل.

المحور الثالث والخمسون: العدل بديلُ السيف

نتحدّث في هذا المحورعن ميثاق مشرق، يستحقّ به أن يحلّ محلّ الشمس فينير ديجور الجماعات الإنسانية ودجاها. ولكن هيهات أن ينال ما يستحقّ دون جهود من الأمّة الإسلامية التي يجب عليها أن تقدّمه إلى المحتاجين في العالم، يقول الإمام علي (ع): «اجعل الدين كهفك والعدل سيفك، تنجُ من كل سوءٍ وتظهر على كلّ عدوّ»[1].

---

(1) الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص67.

الجملة الأولى من هذا القول العلوي المنيف: «اجعل العدل سيفك» لا عِدل لها في تاريخ الكلام البشري، فما أجمل أن يحلّ العدل محلّ السيف ويدعى الناس إلى الطاعة بالعدل فيهم، وتقهر قلوبهم بالعدالة بدل أن تُقهر أجسادهم بالسيوف. والدين والمذهب الذي يفكّر قادته بهذه الطريقة يصعب على الإنسان يستوعب مدى عمق نظرته إلى الكرامة الإنسانية. وبالمقارنة بين إعمال العدل بدل السيف، والسيف بدل العدل، تظهر الفوارق الأساس التي تميز المجتمع الإنساني عن مجتمع الغاب، ويظهر عمق الفرق بين شريعة الإنسان وشريعة الحيوان.

لعل بعض هذه المحاور يمكن إدراجها في بعضها الآخر، ولكن أيضًا ثمّة محاور أخرى تستحقّ أن تُذكر وتُعرض، وهي تدعونا أيضًا إلى العدل والعدالة في أبعاد شتّى من أبعاد الحياة الاجتماعية. ولكنّي في هذه الأيام أعمل بشيء من العجلة، وأراعي دائمًا جانب الاختصار، فالفرصة لم تعد كبيرة والحاجات الاجتماعية تحاصرنا ويدعونا الواجب إلى تلبيتها. ولولا البناء على الاختصار لأمكن ذكر محاور أخرى على نحو الاستقلال، مثل: كسب محبّة الله التي يخبرنا الله عزّ وجلّ عن توقّفها على العدل حتّى مع المختلفين عنّا في الدين: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1]. وأي شيء أغلى وأعلى من نيل محبّة الله وتحقيق السبب الذي يؤدّي إليها؟

ومن المحاور التي لم نشر إليها الاهتمام بحقوق الأقليات الدينية التي تعيش بين ظهراني المسلمين. وردت في التراث الحديثي الإمامي أحاديث عدّة تدلّ على اهتمام أئمّة أهل البيت (ع) بحقوق الأقلّيات الدينية، ومنها هذا الحديث الذي يتضمّن دروسًا اجتماعية خالدةً:

يروي ياسر خادم الإمام الرضا (ع) فيقول: كتب من نيسابور إلى

---

(1) سورة الممتحنة: الآية 8.

المأمون: أنّ رجلًا من المجوس أوصى عند موته بمالٍ جليلٍ يفرّق في المساكين والفقراء، ففرّقه قاضي نيسابور في فقراء المسلمين، فقال المأمون للرضا (ع) ما تقول في ذلك؟ فقال الرضا (ع):

«إنّ المجوس لا يتصدّقون على فقراء المسلمين، فاكتب إليه أن يخرج بقدر ذلك من صدقات المسلمين، فيتصدّق به على فقراء المجوس»[1].

وفي ختام الحديث عن المحاور الدالّة على وجوب تحقيق العدالة وتطبيقها، تجدر الإشارة إلى أنّ تطبيق العدالة وبذل الهمّة في طريق تحقّقها، ينزل علينا النصر وينيلنا رضا الحجّة (ع)، ويوجب المنّ علينا بالوحدة الحقّة والسيادة الدائمة.. وعندما تتحقّق العدالة الاجتماعية يشعر كلّ فردٍ بحماسٍ روحيّ يدبّ فيه يساعده على أداء واجباته تجاه المظلومين في كلّ مكانٍ من العالم الإسلامي وغيره، ويرى أنّه قادرٌ ومطالَب بنصر المظلومين في فلسطين ولبنان، والجزائر ومصر، وجامو وكشمير، وغيرها من بلاد الله التي تُنتهك فيها حقوق الناس، وتهتك فيها كراماتهم. وما ذلك على الله بعزيز.

(1) الصدوق، عيون أخبار الرضا (ع)، ج2، ص18.

الفصل الثالث

تعريف العدالة

العدالة من وجهة نظر الإمام الصادق (ع)

تمهيد

يتفق علماء المعقول والمنقول على أنّ الأخبار الموثوقة التي تنقل أقوال المعصومين (ع) مقدّمة على غيرها من الكلام. والتمثيل (أي ما يسمّيه الفقهاء بالقياس) الذي ينقل عن المعصوم (ع) يعادل في حجّيته ووجوب العمل به القياس البرهاني الذي يستند إلى مقدّمات بديهية.

يقول ملّا عبد الرزاق اللاهيجي:« المقدّمات التي تُستفاد من كلمات المعصومين (ع) عن طريق التمثيل بحكم القضايا الأولية يمكن استخدامها في القياس البرهاني وهي تؤدّي إلى اليقين، وذلك لأنّها وردت على لسان المعصوم وما ورد على لسانه يقيني الصدق، وهو حقّ إذا صحّت نسبته إلى صاحبه »[1].

وتبرير هذا الموقف يستند إلى أنّ علوم المعصومين (ع) وكلامهم مأخوذٌ عن «العلم الإلهي» و«اللوح المحفوظ» و«الكتاب المكنون»، وعقولهم كلّية غير جزئية كعقول غيرهم من البشر العاديين، حتّى الفلاسفة والعرفاء، كما إنّ القضايا التي يبينونها بحكم القضايا الأولية التي لا يتوقّف التصديق بها

(1) اللاهيجي، **گزيده گوهر مراد**، ص23.

على الدليل، بل هي قضايا بديهية أقيستها معها. وهذا بخلاف العلم النظري البحثي أو العلم الكشفي الشهودي، فهذان النوعان من العلوم في معرض التعارض والتضارب، ولا تصل إلى مرتبة العلم الأوّلي المستغني عن الدليل. هذا في حال عدم التعارض بينها وأما إذا تعارضت فهي تسقط عن درجة الاعتبار.

يقول السيد الأمير أبو القاسم فندرسكي، وهو الفيلسوف الكبير الذي لا نظير له في عصره (المتوفى سنة 1050 للهجرة) في هذا الصدد: «قد يقع الفلاسفة في الخطإ؛ ولكنّ الأنبياء (ع) لا يعرف الخطأ طريقًا إليهم لا في العلم ولا في العمل؛ فالفلاسفة ينالون علومهم بالتعلّم والعمل، بينما يستند الأنبياء في علومهم إلى الوحي والإلهام ولا ينالون العلم بالكسب والتعلّم أو التفكير النظري. ومن هنا تنشأ العصمة عند هؤلاء وليس أولئك من أهل العصمة. وهذا هو سبب عدّ الكلام الصادر عن الأنبياء من الأوليات اليقينية»[1].

وعلى هذا الأساس نرى أنّ الفلاسفة الإسلاميين، مضافًا إلى علماء العلوم الإسلامية كالفقه والتفسير والحديث والأخلاق والكلام الإسلامي وغيرها من العلوم، يستندون في كتبهم وأقوالهم إلى الأحاديث المرويّة عن النبي (ص) والأئـمّة الطاهرين (ع) ويعتمدون عليها في آثارهم العلمية ودراساتهم وبحوثهم، ويستشهدون بها في آثارهم ولا يغفلونها أو يتجاهلونها. ويكشف النظر في كتب فلاسفة من أمثال: ابن سينا، وميرداماد، وصدر المتألّهين الشيرازي، وملّا هادي السبزواري، والسيد على المدرّس وغيرهم، عن هذه الحقيقة الواضحة التي لا تحتاج إلى استعراض نصوصهم أو أفكارهم التي رصّعوها بكلام المعصومين.

ثمّة آراء ونظريات كثيرة في ما يرتبط بمصطلح العدالة ومعانيها،

---

(1) مير فندرسكي، رساله صناعيه.

طرحها العلماء وأهل الرأي، وأدلى كلٌّ منهم بدلوه فيها فعرّفها بعضهم بأنّها المساواة وآخرون بأنّها الحرية. كما قيل الكثير في سبيل تحقّق العدالة في الواقع الإنساني. ولسنا الآن بصدد نقل هذه الأقوال ولا الموازنة بينها، وترجيح أحدها على غير أو إبطالها والخروج بتفسير جديد. بل ما نرمي إليه هو الإشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ أهمّ أقسام العدالة هو ما يعرف بالعدالة الاقتصادية أي العدالة في العيش ومستوى الحياة، وهي ذات صلة بجميع شؤون الحياة الإنسانية ولها تأثير على أبعاد حياته كلّها سواء في ذلك الأبعاد المادية والروحية والتربوية، كما تأثيرها في ترقّي الإنسان وكماله.

ولم تسلم العدالة الاقتصادية من التفسير ولا من الاختلاف فيه، حيث قيل في تعريفها الكثير واختلفت الآراء فيها باختلاف المذاهب الفكرية التيارات، الصادرة من جهات الأرض الأربع. وتعريفنا الذي نتبنّاه للعدالة هو تعريف مغفولٌ عنه ومهجورٌ؛ بل هو تعريفٌ مظلومٌ حتّى بين المسلمين. وهو تعريف يستند إلى كلام الإمام الصادق (ع). وأنا أدعو المفكّرين والباحثين الثوريين إلى بذل ما وسعهم من جهد في التأمّل في هذا التعريف وإنعام النظر فيه من أجل المحرومين والمستضعفين في العالم، ليكتشفوا مدى عمقه ومدى تأثيره الإيجابي على سائر القيم الإنسانية. وأن لا يدّخروا جهدًا في الترويج له بكلّ لغة ولسان. وأنا زعيمٌ بأنّ هذا الحديث هو مدرسة في محاربة الفقر ورفع الحرمان والاستضعاف.

كلام حول تعريف الإمام الصادق (ع) للعدالة

هذا التعريف العظيم وصل إلينا بسندٍ معتبرٍ عن فجر الهداية النبوية ومنارة الهداية العلوية الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)، حيث قال: «إنّ النّاسَ يَستَغنونَ إذا عُدِل بينَهم»[1].

هذا وإنّ غفلة المسلمين، وخاصّة أتباع مدرسة الأئمّة (ع، عن أهمّية هذا

---

(1) الكليني، الكافي، ج3، ص568.

التعريف، تدعو إلى الأسف والحسرة، وذلك أنّنا لا نشاهد أيّة إشارة إليه في سياق الحديث عن العدالة أو الكتابة عنها، ولا نسمع ما يتردّد في مباحثات العلماء والفقهاء. وهذا شكلٌ من أشكال الظلم الذي يمارسه التاريخ على أئمّة أهل البيت (ع)، وهو ظلمٌ للبشرية كلّها عندما تُحرم الإنسانية من مصادر الهداية هذه.

والمهمّ في هذا التعريف هو واقعيته أي ربطه العدالة بواقع الحياة الإنسانية، هذا مضافًا إلى البعد الإلهي الذي يكشف عن أنّ تحقيق العدالة مرادٌ لله تعالى وهو أمرٌ كشفت عنه آيات في القرآن وأحاديث من سنّة النبي (ص) وأئمّة أهل البيت (ع)، والمقصود من الواقعية في تقييمنا لهذا الحديث هو أنّه يتحدّث عن الناس الذين هم جسدٌ وروحٌ، وعندما يربط العدالة بالناس وغناهم وفقرهم فهو يتحدّث عن واقع يمكن أن يدركه الإنسان حتّى في سنّ الصغر والطفولة المتأخّرة.

ومن حسن الحظّ أنّ هذا الحديث رُوي عن الإمام الصادق (ع) في مصدر معتبر هو الكافي، ووصل إلينا بسندٍ موثّق، فهو لا يعاني من مشكلة في السند وأمّا من ناحية التقويم المضموني فهو في أعلى درجات الوثاقة والصدق. وعلى الرغم من كفاية صحّة نسبته إلى المعصوم، في قبوله والعمل به، فإنّ ممّا يؤيد الاستناد إليه موافقته لكتاب الله وحسبه ذلك، وموافقته لما هو معلوم الصدور عن المعصومين (ع) في روايات أخرى[1]. وإذا كان لا بدّ من المزيد في هذا المجال، فلا بأس من النظر في حديث آخر مروي عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) وهو أحد معلّمي الحقائق الإلهية وواحد من حملة التعاليم القرآنية السامية. وهذا نصّ الحديث المروي عنه (ع): «إنّ الله لم يَترك شيئًا من صُنوف الأموال إلا وقَد قَسَمَه وأعطى كلَّ ذي حقٍّ حقّه

---

(1) للمزيد، انظر: محمد رضا حكيمي وآخرون، **موسوعة الحياة**، ج3 إلى 6، ودقّق النظر في الأحاديث المنقولة فيها من زاوية ارتباطها بهذا الحديث والمفاهيم الواردة فيه.

الخاصّة والعامّة والفقراء والمساكينَ وكلّ صنفٍ من صنوف الناس... ولو عُدلَ في الناسِ لاستغنَوا...»[1].

ظاهر هذين الحديثين هو العدالة الاقتصادية والمعيشية؛ ولكن توسعة إطارهما ليشملا كافّة أنواع العدالة بحيث يكونان في مقام الدعوة إلى ممارسة العدالة ونشرها على الصعد كلّها. وما يؤيد هذه التوسعة هو عدم تقييد كلمة «الناس» والحديث عن العدل بينهم دون ربط ذلك بعدل في مجال دون غيره. ثم إنّ العدالة لا تنجو من براثن الفقر والحرمان إلا إذا بُنيت على أسس راسخة. ولا يتحقّق هذا الأمر إلا عبر تطبيق العدالة في مختلف الشؤون الاجتماعية. بعبارة أخرى: لا تتحقّق العدالة المعيشية في حياة الشعوب حتى تتحقّق العدالة السياسية والعدالة القضائية والعدالة الاجتماعية وتُقطَع أيدي الأثرياء عن تناول أرزاق الفقراء وتبذير أموالهم، وحرمان الآخرين من الوصول إليها، وحتّى يحال بينهم وبين استغلال الفرص السياسية والاجتماعية التي تجلب المزيد من المال أو تُشترى بالمال. وبعبارة ثالثة: التكاثر والعدالة ضدّان لا يجتمعان أو نقيضان، لا يلتقيان في مجمتع واحد. وقد علّمنا الإمام علي بن أبي طالب (ع) أنّه: «لا يَحمِلُ الناسَ على الحقِّ إلا مَن وَرّعهُم عن الباطل»[2].

ويشتمل هذا القول على حقيقة واضحة كعين الشمس، لا يمكن نفيها أو التشكيك فيها، فكيف يمكن للقائد أو الحاكم أن يصوّب الانحراف الاجتماعي عند العامّة إذا لم يكن سبّاقًا لهم إلى الحقّ.

التكاثر والطموحات والطمع في الأموال أمور مرفوضة. ويقع الحقّ والخيارات المقبولة في الجهة المقابلة تمامًا، وهذا الحقّ هو التوزيع العادل للفرص الاجتماعية على أنواعها بين جميع الناس بطريقة عادلة. ولا يأتي

---

(1) الكليني، **الكافي**، ج1، ص542.

(2) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج27، ص212.

الحقّ إلا بذهاب الباطل؛ لأنّ الباطل كان زهوقًا، وهذا تعليم مفيد ومؤثّر في الحياة والحكمة العملية الراقية، ولا مثيل له في هداية أبناء البشر وتنمية أبعاد الحياة المختلفة، ولا يمكن أن نسلك طريقًا غيره. ومن الواضح أنّ تطبيق العدالة هو أساس الحياة السليمة والراقية في جميع المجتمعات.

وما ذكرناه عن توسعة دائرة الحديثين المذكورين إلى مجالات العدالة كلّها نجد له ما يؤيده في التراث الإمامي، لا أجد بدًّا من نقله في هذا الكتاب بعد مقدّمة قصيرة. وإنّ كاتب هذه الصحائف له اطّلاع على بعض النظريات الفكرية الحديثة الشرقي منها والغربي، وعنده شيء من القدرة على إيرادها ونقدها واتّخاذ موقفٍ منها مبني على قبول أدلّتها أو نقدها وردّها. ولكنّني أميل إلى بناء المطالب التي أعرضها في هذا الكتاب وفي غيره من الكتب بالاستناد إلى الأحاديث المعتبرة الواردة في التراث الإسلامي الروائي، وذلك إحساسًا منّي بوجوب ذلك علي واعتقادًا بأنّ هذا هو التكليف الذي يجب علي أداؤه تجاه هذا التراث، وممّا يدعوني إلى مثل هذا التشخيص أمور، أعرضها سريعًا في ما يأتي:

1 ـ الغفلة عن هذه التعاليم القيّمة والأحاديث التي تتضمّن تعاليم سامية. ولذلك لا نراها حاضرةً في نقاشات العلماء والفضلاء. مع ا لعلم أنّ المتوقّع من أمثال هؤلاء أن يكونوا على حدّ قول الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء (ع): «بُلغاؤه إلى الأمم»[1]، وبالتالي من واجبنا جميعًا أن نوصل هذه التعاليم الراقية إلى المتعطشين لها، وأن لا نبقي هذه الكنوز مطمورة في غياهب خزائن الكتب.

2 ـ إنّ الشباب والأفراد الذين لا توضع هذه التعاليم التي هي مفاتيح للنجاح والفلاح بين أيديهم، يحرمون من كنزٍ ثمينٍ من كنوز الحياة الإنسانية،

---

(1) الطبرسي، **الاحتجاج**، ج1، ص134.

ويحال دون نيلهم صورة عن الأفكار التي تؤدّي إلى صواب العقيدة والعمل، ولا حرمان فوق هذا الحرمان، ولا فقر أبلغ من هذا الفقر.

3 ـ ضرورة نشر هذه التعاليم والحقائق؛ لكي يدرك الجميع أن تعاليم المعصومين (ع) هم الذين يجب اتّباعهم، وهذا الاتّباع من الأركان الأساس في العقيدة الإمامية، وهم يستندون في هذا الركن إلى آيات القرآن وسنّة رسول الله السمحاء، وإلى التعاليم العلوية والجفعرية. وهذه التعاليم ليست إنشاءً ولا خطبًا رنّانةً بل هي بيانٌ لحقائق ساميةٍ. وإنّ نشر هذه التعاليم تترتّب عليه آثار وفوائد جمّة للمسلمين ولغيرهم من الشعوب التي توضع هذه التعاليم بين أيديهم، ومن هذه الثمار والآثار:

أـ الحفاظ على الجانب العلوي للدين الإلهي، وحماية قداسة القيم الإلهية ـ الإنسانية السامية وقداستها، بما هي منشأٌ للترقّي.

2 ـ ثبات المسلمين على الإيمان والعمل الصالح، واستقامتهم ومعرفة أبعاد الدين الحنيف والقيم الراقية لتعاليمه.

3 ـ إحياء الروح المنادية بالعدالة في المجتمع الإسلامي والحفاظ عليها كمهمة دينية، حتى تهتمّ الإنسانية كلّها بقضية العدالة وتجعلها على رأس قائمة أولوياتها، وتزيل كلّ الموانع والعوائق الحائلة دون تحقّقها.

4 ـ إثارة الرغبة عند أتباع سائر الأديان، في الالتزام بالعدالة وغيرها من القيم الإنسانية المشتركة في الأديان الإلهية.

5 ـ خيبة أمل الأعداء ويأسهم من إضعاف الإيمان عند الشعوب وخاصّة بين الشباب.

6 ـ زيادة عدد المؤمنين بالعدالة وببزوغ فجرها، والحفاظ على دماء الشهداء التي روت الأرض من أجل شعار العدالة الاجتماعية.

وقد تحتاج هذه الآثار الستّة إلى مزيد من التوضيح؛ ولكنّنا نكتفي بالأثر الثاني ونطوي كشحًا عن بقية الآثار طلبًا للاختصار.

إنّ حماية عقيدة المؤمنين والاهتمام بعدم تزلزلها من الأمور الحيوية في المجتمع الإسلامي، وهذا الهدف يتحقّق بوسائل شتّى كالكتابة ونشر الكتب والآثار العلمية. وقد تؤثّر هذه الكتب والمؤلّفات في تعزيز إيمان الأجيال وحفظ معتقداتها، وخاصّة الشباب الذين لم يتعرّفوا إلى تعاليم المعصومين (ع) وحقائق الدين ومواقف الأئمة (ع) من أجل تربية الأفراد وبناء المجتمع وتنفيذ الشريعة الإسلامية السمحاء.

روى الشيخ الجليل والمحدّث الكبير أبو جعفر الصدوق في كتابه «إكمال الدين وإتمام النعمة» بسند موثّق عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن آبائه الكرام (ع) عن النبي (ص) أنّه قال لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): «يا علي، واعلم أنّ أعجب الناس إيمانًا وأعظمهم يقينًا قومٌ يكونون في آخر الزمان لم يلحقوا النبي وحُجِبَ عنهم الحُجّة فآمنوا بسوادٍ على بياضٍ»[1].

وعبارة «سواد على بياض» تدلّ على الكتابة على الورق وغيره، وحرف الباء في «بسواد» حرف جرّ للتعدية، وربّما يفيد معنى السببية؛ وبالتالي يحتمل في معنى هذه العبارة أحد أمرين، هما: الإيمان بالسواد على البياض، أو الإيمان بسبب السواد المكتوب على البياض. وهذا الحديث شريف يُعدّ من الأخبار الإعجازية الصادرة عن النبي (ص)، لأنّه إخبار بالغيب قبل 1400 سنة.

هل ثمّة كتب أخرى تطبّق هذه المهمّة؟ وهل يستطيع أحدٌ أن يؤدّي مهمّة الشمس ـ حسب قول طاغور (الشاعر والأديب الهندي الكبير) ـ ويحيي الإيمان في قلوب أبناء البشر؟

كلام حول حديث الإمام الكاظم (ع) عن العدالة

وبالعودة إلى الحديث الذي وعدنا بنقله عن الإمام موسى بن جعفر (ع)

---

(1) الصدوق، **كمال الدين وإتمام النعمة**، ص288.

كمؤيّد للعلاقة بين أشكال العدالة وأنواعها. فإنّ العدالة لا تتحقّق إلا إذا انبسطت على الشؤون كلّها، ولا يكون المجتمع مجتمعًا عادلًا إذا استطاع الناس فِيه نيل المأكل والمشرب بالتساوي وحرموا من الملبس أو المسكن، وهكذا وهذا من ضروريات القضايا وبديهياتها. وعلى أي حال يقول الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع): «لايَعدِلُ إلا مَن يُحسنُ العدلَ»[1].

نفهم من هذا الحديث أمرين:

- عجز الشخص الذي لا ينسجم فعله وقوله مع معايير العدالة عن تطبيقها وتحقيقها في المجتمع.

- من لا يدرك معنى العدالة بصورةٍ صحيحة ولا يعرف أبعادها، ولا يعرف حقيقة الإنسان الذي هو الهدف الرئيس لتنفيذ العدالة، ولا يعلم شيئًا عن الحياة الطيبة ولا عن آثار الاستضعاف والفقر والحرمان على المستوى الاجتماعي، لا يقدر أن يكون مطبّقًا للعدالة. وملخّص القول إنّ تطبيق العدالة أمرٌ صعبٌ، لا يقدر عليه إلّا من كانت العدالة سيرة له ومسلكًا.

وفي هذا المجال، نشير إلى بعض الأمور لمزيد من التوضيح لهذا الحديث الشريف:

الأمر الأول: المجتمع الديني

المجتمع الديني هو الذي تتوفّر فيه أسباب الوعي ومقتضيات التربية، وهذا التعريف أسهل التعاريف لتبيين المجتمع الديني القرآني. ومن البديهي أنّ السبب الرئيس لتنمية المجتمع وتطوّره هو تحقيق العدالة، وأنّ توفير الصحة النفسية رهنٌ بحماية الأفراد والأسر من موجبات اليأس والكآبة، وأنّ إزالة التوتّرات النفسية والاكتئاب والإحباط (عدم الوصول إلى الأهداف والحرمان) والتعارض (الخيارات المفروضة) كلّها رهينة تطبيق العدالة.

---

(1) الكليني، **الكافي**، ج1، ص542.

الأمر الثاني: اهتمام الإسلام بالتربية

إنّ الأهمّية العملية التي تحظى بها المدارس الفكرية مرهونةٌ بإمكانياتها وطاقاتها لتربية وتوعية أبناء البشر. في العالم الراهن، على الرغم من ابتعاده عن آفاق التربية الصحيحة، ثمّة اهتمامٌ بالغ بالتربية؛ وقد اهتمّ الإسلام بهذا الشأن الحسّاس اهتمامًا كبيرًا جدًّا، وشرّع عددًا من التشريعات واتّخذا تدابير متنوّعة لتحقيق التربية الصحيحة في المجتمعات البشرية.

الأمر الثالث: معيقات تربية الإنسان

العائق الأوّل أمام التربية الروحية للإنسان هو عدم الالتزام بأحكام الدين وضعف التديّن العملي، والمعيق الثاني هو الظلم والجور؛ ومن هنا نجد أنّ التعاليم الدينية أولت اهتمامها بأمرين جعلتهما شعارين لها وركنين لهداية المجتمع. قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾[1]. ويقول في موضع آخر: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[2].

الأمر الرابع: مشكلة المدارس الفكرية إثر وصولها إلى السلطة

تكمن مشكلة المدارس الفكرية إثر وصولها إلى السلطة في فهم المدرسة وتنفيذ أحكامها وقوانينها بصورة دقيقة. ولذلك ثمّة تأكيدٌ بالغٌ على ضرورة وعي الدين و«التفقّه في الدين». ولا يعني «التفقّه في الدين» تحصيل علم الفقه بمعناه الاصطلاحي المعروف،؛ بل يعني فهم الدين وأبعاده وأهدافه.

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «أيها الناسُ لا خيرَ في دينٍ لا تفقّهَ فيه»[3]. نعم! الدين والتدين اللذان لا يقارنهما الفقه والفهم، لا خير فيهما، ولا يؤدّيان إلى السعادة ولا إلى الهداية، لا للأفراد ولا للمجتمعات..

---

(1) سورة الأعراف: الآية 85.

(2) سورة الأعراف: الآية 85.

(3) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج1، ص174.

وربّما لا نعدم المبرّر للإشارة إلى بعض أشكال سوء الفهم للدين:

1 ـ فهمه بطريقة رجعية متخلّفة.

2 ـ الخلط بين الأفكار الدينية وغيرها وهو ما يعرف بالالتقاط أو التلفيق.

3 ـ تعريضه للتحريف خلال عملية الفهم والتفسير.

4 ـ التجزئة والتبعيض في فهمه، من خلال الاهتمام ببعض أبعاده وإهمال سائر الأبعاد. مثل الاهتمام ببعض الأحكام على المستوى الظاهري وغضّ النظر عن روحها وجوهرها أي العدالة.

5 ـ فهمه بطريقة تتناسب مع مصالح الطبقات المترفة في المجتمع، وتفسيره بما ينسجم مع الرأسمالية، وبحسب المصطلح الذي اعتمدنا فهمه بطريقة تجعل التكاثر قيمة إيجابية. وهذا يؤدّي إلى الذهاب بقيمه الدالة وإلى القضاء على العوامل المساعدة للشباب على الرشد والتطوّر.

الأمر الخامس: معرفة الزمان

معرفة الزمان الذي نعيش فيه من العناصر الأساس في مسيرة الوصول إلى التربية الصحيحة للذين يعيشون في هذا الزمان، ولا يمكن للعلماء والمربّين تحقيق أهدافهم الاجتماعية دون معرفة العصر والزمان. والعدالة أيضًا لا يمكن تحقيقها كهدفٍ مستقلٍّ أو بوصفها عنصرًا من عناصر التربية إلا إذا عرف الباحثون عنها وطالبوها الزمان الذي يريدون تحقيقها فيه.

الأمر السادس: أهمّية معرفة الإنسان

تحظى معرفة الإنسان ومنزلته وكرامته بدرجةٍ عالية من الأهمية في مسيرة التربية وتحقيق العدالة. ومن هنا نجد أنّ أمير المؤمنين (ع) بيّن لواليه الذي أوفده إلى مصر مالك بن الحارث الأشتر موقع الناس ومنزلتهم التي يحظون بها في سياق بيانه كيفية التعامل معهم، فقال له:«فإنّهم صنفان: إمّا

أخ لك في الدينِ أو شريك لك في الخلق»[1]. وعندما يكون الناس إخوانًا ونظراء لا ينبغي أن يظلموا أو يمارس الحيف عليهم، ولا محاباة أحدهم على حساب الآخر، كائنًا ما كان دينه: «...أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو اقتبستم العلم من معدنه وشربتم الماء بعذوبته وادّخرتم الخير من موضعه وأخذتم الطريق من واضحه وسلكتم من الحق نهجه لنهجت بكم السبل وبدت لكم الأعلام وأضاء لكم الإسلام، فأكلتم رغدًا وما عال فيكم عائلٌ ولا ظُلِمَ منكم مسلم ولا معاهد؛ ولكن سلكتم سبيل الظلام فأظلمت عليكم دنياكم برحبها»[2].

الأمر السابع: الدين والدنيا

جرت العادة في الأوساط الدينية أن يتحدّث الناس عن الدين ويهتمّوا بأموره وشؤونه، سواء كان من أهل الدين أم من أهل الدنيا. وهذا الأمر له آثارٌ سلبية خطيرةٌ على التدين؛ وذلك لأنّ أهل الدنيا يحوّلون الأفعال الدينية ويحرّفون مجراها لتصبّ في نهر مصالحهم الدنيوية. ولمّا كان هذا الأمر يأخذ صورة الدين ويحصل باسمه فإنّه في كثيرٍ من الأحيان يكون على حساب العدالة وضدّ مصلحتها. ويؤدّي هذا الخلل إلى استغلال الدين وتشويه صورته في أذهان الأجيال الناشئة، ما يجعلهم يسيئون الظنّ بالدين وأهله.

الأمر الثامن: الهدف النهائي للإنسان

لا يعرف جميع الذين يريدون أن يلغوا عبادة الله سبحانه وتعالى من الحياة حقيقة الإنسان. كما إنّ الذين لا يهتمّون بالعدالة وتحقيقها في المجتمع، لا يدركون حقيقة الإنسان ولا الهدف النهائي له في حياته. ومعرفة الإنسان وطبيعة حياته تتحقّق بمعرفة الأنبياء (ع) ومعرفة التعاليم التي وردت في

---

(1) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج3، ص84.

(2) الكليني، **الكافي**، ج8، ص32.

القرآن الكريم والأحاديث المرويّة عن المعصومين (ع). ولا يمكن معرفة الإنسان ولا هدايته إلى سبيل الرشاد دون هذا النوع من المعرفة والفهم. ومن الواضح أنّنا لانستطيع إدراك الطريق الذي يسلكه الإنسان وأهدافه التي لا بدّ من أن يصل إليها دون هذه المعرفة. ومن دون المعرفة الصحيحة بالحياة الطيبة، لا تُعرف الحاجات الحقيقية، وما لم تُعرف الحاجات الحقيقية، وقد يؤدّي ذلك إلى إحلال الحاجات الكاذبة محلّ الحاجات الحقيقية. كما يؤدّي الخطأ في المعرفة إلى التمييز العنصري وغيره من الاشتباهات والأخطاء التي لا يقبلها الإسلام ولا تنسجم مع تعاليمه التي أقرّها لإدارة الحياة الإنسانية الطيبة.

إذًا وبناء على تقدّم في الأمر السادس، ينبغي معرفة الإنسان وتعريفه أوّلًا وقبل أي شيء، والمقصود من هذه المعرفة معرفته على ضوء آيات القرآن والأحاديث، وأهم عناصر هذه المعرفة ما يأتي:

1 ـ ما الهدف من مجيء الإنسان إلى الدنيا؟

2 ـ في أي مرحلة من مراحل مسيرة الإنسان تقع هذه الحياة التي يحياها الإنسان في الدنيا؟

3 ـ ما هو الهدف المبتغى من عبور الإنسان في هذه المرحلة؟

4 ـ ما هي الحاجات الأساسية التي ينبغي للإنسان تحصيلها في هذه الدنيا؛ للوصول إلى الغاية القصوى والهدف الرئيس؟

5 ـ ما هو المقصد الأخير للإنسان؟

6 ـ ما هو الهدف الأقصى والغاية النهائية للإنسان؟

7 ـ هل يصل الإنسان إلى هدفه النهائي في هذه الحياة الدنيوية أم لا؟

ولا تتحقّق التربية ولا ينال الإنسان رشدَه ولا يهتدي طريقه إلى أهدافه ما لم ينل الإجابة الصحيحة عن هذه الأسئلة. ولنا عبرة في المدارس الفكرية والديانات أو شبه الديانات القديمة كالبوذية والطاوية وغيرها، فهي وقعت

في أخطاء عظيمة أفضت بها إلى تعذيب الجسد وانتهاكه بطريقة لا يمكن تبريرها عقلًا، ولا سبب لهذه الممارسات سوى الخطإ في فهم الإنسان والخطأ في فهم حاجاته.

ولم يخلق الله تعالى الإنسانَ ليكون ندًّا وعدوًّا له، بل خلقه ليصارع إنيته ونفسه الأمّارة بالسوء، من أجل أن يتحرّر من أسر الذات ويحلّق في سماء الحرية الأرحب وينال رشده وكماله. ولا يتحقّق هذا بغير العدالة والاعتدال، ولا يتحقّق الاعتدال إلا بمعرفة الإنسان نفسه والمراحل التي مرّ بها أو سوف يمرّ بها خلال مسيرته الوجودية.

والمعرفة الأكمل والأصوب هي معرفة النفس بواسطة القرآن والوحي وبواسطة البيانات الصادرة عن المعصومين (ع). والقُلّة العليا التي يمكن أن يطأ الإنسان ذراها هي قلّة التقوى بحسب التحديد القرآني للكمال الإنساني، وقد جعل القرآن لها طريقًا لاحبًا هو العدل، حيث يقول تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1]. والعدالة الحقّة هي العدالة الشاملة التي لا تبقي للظلم عينًا ولا أثرًا، ولا تترك للفقر والحرمان محلًّا. يقول سيد الموحّدين الإمام علي بن أبي طالب (ع) عن مدينة الكوفة (عاصمة الدولة الإسلامية في عهده): «ما أصبح بالكوفة أحدٌ إلا ناعمًا. إنّ أدناهم منزلةً ليأكلُ البُرّ ويَجلسُ في الظلّ ويَشربُ مِن ماء الفُراتِ»[2].

وإنّه لمن غرائب الأمور أن ينعم أهل الكوفة بهذه الحالة من انتشار العدل وتوزيع الحدّ الأدنى من الثروات على الجميع، وأن ينحصر التفاوت والاختلاف الاقتصادي في ما زاد عن الحدّ الأدنى المسموح به. وخاصّة أنّ هذه المدينة كانت مدينة مضطربة غير مستقرّة أنهكتها الحروب خلال تلك الفترة من ولاية الإمام علي (ع). وقد وصل انتشار العدالة في الكوفة في

(1) سورة المائدة: الآية 8.

(2) المجلسي، بحار الأنوار، ج40، ص327.

ذلك العهد إلى حدّ الاستهجان عند رؤية شخص من غير المسلمين[1] يمدّ يد السؤال إلى الناس في أحد أزقّة تلك المدينة التي ربّما لم يعرف التاريخ لها مثيلًا إلى عصرنا هذا.

الأمر التاسع: مجتمع بلا فقر

ربّما يعتقد بعض الناس أنّ الدعوة إلى استئصال الفقر، والدعوة إلى تأسيس مجتمع خالٍ من هذه الظاهرة، ما هي إلا دعوةٌ مثاليةٌ يستحيل تحقّقها في عالم الواقع. ولكنّ الأمر ليس على هذا النحو؛ لأنّ القرآن يأمر بمثل هذا ولا يمكن أن يأمر القرآن بما هو خيالي ولا مجال لتحقيقه، وذلك أنّ علماء الأصول أثبتوا في أبحاثهم ودراساتهم قبحَ «التكليف بما لا يُطاق» واستحالة صدوره عن الله تعالى الذي لا يأمر بالقبيح، والمورد الذي دعا فيه الله إلى مثل هذا الأمر هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[2].

ويحدّد الله تعالى في القرآن الكريم الهدف من بعثة الأنبياء (ع) أو أحد الأهداف الرئيسة وهو إقامة العدل والقسط بين الناس: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾[3]. فهل يعقل أن يأمر الله الحكيم الخبير الرحمان الرحيم العادل، بالمحال الذي لا يمكن تحقّقه؟! كلّا ولا، وحاشا حكمته وكرمه وعلمه. إذًا العدالة مطلبٌ ممكنٌ ومتاحٌ؛ لكن ما هي العدالة؟ العدالة، بحسب الإمامين (ع) تتحقّق عندما يرتفع الفقر والحرمان، ويصل الناس إلى حالة الغنى عن

(1) إشارة إلى رواية ذكرها صاحب الوسائل تحت عنوان إنّ نفقة النصراني إذا كبر وعجز عن الكسب من بيت المال: «مرّ شيخ مكفوف كبير يسأل فقال أمير المؤمنين (ع): ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين نصرانيّ، فقال: استعملتموه حتّى إذا كبر وعجز منعتموه؟! أنفقوا عليه من بيت المال.» (الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج15، ص66). والدليل على الاستهجان هو استخدام الإمام (ع) كلمة «ما» للسؤال التي هي لغير العاقل وهذا يكشف عن أنّه يسأل عن الحالة وليس عن الشخص. وقد أخطأ المجيبون عندما أجابوا بقولهم هو نصرانيّ.

(2) سورة النحل: الآية 90.

(3) سورة الحديد: الآية 25.

السؤال وتأمين الحاجات الأساسية التي يحتاجونها في حايتهم اليومية. ومن دون العدالة لا يصل الإنسان إلى الرشد، لأنّه ما لم تتحقّق التربية لا ينال الرشد، ولا هداية دون معرفة، ولا عبادة دون معرفة، ولا سعادة دون عبادة؛ لأنّ السعادة الحقّة لا معنى لها وأثر ولا عين دون الوصال بين العبد وربّه.

وبناء على ما تقدّم تبين أنّ العدالة من أهمّ العوامل المساعدة لتحقّق الوصال بين الإنسان وبين منبع الكمال ومصدره الثرّ أي الله تعالى. وعلى ضوء هذا ربط الله عزّ وجلّ بين بعثة الأنبياء وبين العدالة وإقامة القسط. ومن المعلوم أنّ الهدف الأوّل للأنبياء هو الهداية فعندما يكون القيام بالقسط هدفًا لهم، فهذا يكشف عن أنّه هدفٌ أوّل لتحقيق غاية أبعد.

وما أبعد ما بين المعرفة بالأنبياء والأئمّة (ع) وبين الناطقين باسمهم من الذين يعملون على ترويج الدين وأفكار الأنبياء ولا يمارسون فعلهم في حياتهم الشخصية وفي علاقاتهم مع الآخرين. وشتّان ما بين ما يروّجون وبين القرآن وتعاليمه وأهدافه. ذلك الكتاب الذي ينفي كلّ أشكال «الحرج» و«العسر»، عن تعاليمه وتشريعاته. وهذا هو النبي الأكرم (ص) يقول لا خجِلًا ولا وجِلًا:

«لولا الخُبز ما صلّينا ولا صُمنا»[1]. ألا يدلّ هذا الخبر الشريف على أنّ تأمين الحاجات الأساسية وسيلة مساعدة على تحقيق الأهداف المعنوية الكبرى كالعبادة. وعلى الخبز تُقاس سائر الحاجات الضرورية للإنسان.

إذًا العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية من أهمّ الفرائض الدينية، وعدم الاهتمام بها يؤدّي إلى تضييع البوصلة وضلال الإنسان عن صراط الرشد والكمال وإضلاله. وعلينا جميعًا أن نقصّر في هذا المجال، ولا نفرح بالإنجازات الظاهرية التي ربّما نناله، فربّما تكون بعض الإنجازات القصيرة الأمد كارثةً مجهولة على المدى البعيد.

---

(1) الكليني، **الكافي**، ج5 ص73.

الأمر العاشر: خصائص العاملين على العدالة

لا شكّ في أنّ نشر العدالة وإقامة القسط ليس أمرًا سهلًا. وقد أشرنا سابقًا إلى الإجراءات التي يجب أن تتحقّق من أجل تحقيق العدالة في المجتمع، وإلى الصعوبات التي نواجهها في هذا الطريق. كما أشرنا إلى ما يترتّب على تحقيق العدالة من انقطاع صلات ووصل منقطعات، وقد بيّن الإمام علي (ع) خصائص الذين يريدون أن يقيموا أمر الله ويحقّقوا العدالة في المجتمع الإسلامي؛ إذ يقول: «لا يُقيمُ أمرَ اللهِ سبحانَه إلا مَن لا يُصانِعُ ولا يُضارِعُ ولا يتّبِعُ المطامعَ»[1].

الأمر الحادي عشر: التضادّ بين الاقتصاد التكاثري والإنسانية

الاقتصاد الرأسمالي التكاثري لا يضادّ العدالة ويعيق مسار تحقّقها فحسب؛ بل هو يعادي الإنسانية نفسها. وأدعو القارئ الكريم إلى التأمّل في هذا النص:

«أدّى انتشار ثقافة الاستهلاك إلى حلّ مشكلات صناعة الدواء. وأفضى ذلك إلى انحراف صناعة الدواء عن مسيرها الطبيعي، ونزل إلى أسفل سلّم الاهتمامات. ما ضاعف الأزمات الاجتماعية وتحوّل الدواء إلى سلعة كغيرها من السلع التجارية. واستُخدِم الدواء لتحقيق مكاسب سياسية. وتسعى الشركات المنتجة إلى استضعاف المحتاجين إلى الدواء من خلال التكتّم على بعض المعلومات أو المبالغة في المنافع. ويعني هذا فيما يعنيه الاستضعاف الثقافي والعلمي مضافًا إلى الاستضعاف العلاجي»[2].

يكشف هذا النصّ الخطير عن طريقة نظرة الأغنياء والرأسماليين إلى الإنسان، بحيث يرونه مصدرًا للربح. وهذا هو سبب محاربة القرآن للتكاثر

(1) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، ج4، ص26.

(2) صادق جاويدان نژاد، **اطلاعات داروئى**، ج1، ص «د».

والترف، ومن هنا أيضًا وردت الكثير من الأحاديث في ذمّ هاتين الظاهرتين على لسان النبي (ص) والأئمّة (ع).

الأمر الثاني عشر: أضرار الفقر

ثمّة اهتمام بالغ في عصرنا الراهن بالفقر وأبعاده وآثاره الاقتصادية وغير الاقتصادية. وقد دقّق الإسلام منذ نشأته في آثار الفقر والحرمان المشؤومة، كما اهتمّت الأحاديث الشريفة بهذه الظاهرة اهتمامًا كبيرًا؛ إذ رُوي عن النبي (ص) أنّه قال: «كاد الفقرُ أن يكونَ كفرًا»[1]. وقد عُدّ الفقر في هذا الحديث سببًا من أخطر أسباب السقوط، ومن أهمّ عوامل الخسران المضرّة بالتربية والرشد الإنساني فردًا ومجتمعًا[2].

يفيد هذا الحديث وأمثاله أنّ الفقر ليس مجرّد فاجعة تصيب جسد الإنسان وتؤدّي إلى خلوّ معدته من الطعام، وتعرّي جسده من اللباس؛ بل يؤدّي الفقر إلى حرمان الإنسان من أهمّ العناصر التي تميزه عن غيره من الكائنات ألا وهو الإيمان الذي هو جوهر الحياة الطيبة والحقيقية. وهكذا يؤدّي الفقر إلى عري الإنسان وتجرّده من الفطرة الأصيلة التي أودعها الله فيه. ومن هنا ينبغي أن نسأل أنفسنا ماذا فعلنا لرفع الحرمان المادي والمعنوي، الذي يثقل كاهل الشباب ذكورًا وإناثًا بل كاهل الأطفال أيضًا؟ وهل سألنا أنفسنا ماذا فعلنا وماذا يجب أن نفعل لنسترد حقوق هؤلاء الفقراء من حلوق الأثرياء والمترفين وبلاعيمهم؟ وكيف ينبغي أن نطوّر عمل الأجهزة والمؤسّسات ذات الاختصاص لتقوم بواجباتها خير قيام في هذا المجال؟

---

(1) الصدوق، **الخصال**، ص12.

(2) أشرنا في أكثر من مورد إلى أنّ الخطر لا يأتي دائمًا من الأعداء؛ بل علينا أن ننظر إلى أنفسنا لنعرف ما هي الأخطار التي ننزلها نحن بمجتمعنا.

الأمر الثالث عشر: أضرار الفقر على المجتمع

يجب أن لا نغفل عن أنّ آثار الفقر المشؤومة لا تنحصر في إلحاق الضرر بالأفراد والأشخاص؛ بل تعمّ أضراره وتتّسع دائرتها لتصيب المجتمع كلّه. وذلك لأنّ جميع الشرائح الاجتماعية مترابطة المصالح. والفقر الذي يصيب شريحة لا تنحصر أضراره المدمّرة فيها، بل يسري إلى سائر الشرائح. وذلك بأشكال مختلفة ومن جهات عدّة. وعليه فإنّ الفقر مشكلة اجتماعية عظيمة تصيب الفقراء أوّلًا وبالذات وتنتقل إلى الأغنياء الذين هم وراء هذه المشكلة في كثير من الأحيان. وهكذا يجمع هؤلاء بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[1].

الأمر الرابع عشر: الإسلام والهجمات

تعتمد القوى الاستعمارية الدولية سياسات صارمة في ما يرتبط بالغزو الثقافي ومهاجة العقائد والأخلاق، بما يؤدّي إلى إضعاف العقيدة الدينية عند الأجيال الناشئة من شباب المسلمين. ولذلك يتخلّى هؤلاء الشباب في البلدان الإسلامية عن معتقداتهم وعن إيمانهم بمبادئ الدين الحنيف، وعلى رأس هذه المبادئ مكافحة الظلم حتّى لو أدّى ذلك إلى الشهادة والموت في سبيل الله وسبيل تحقيق هذه المبادئ في الواقع الاجتماعي. ولا يكفّون عن مثل هذه الممارسات حتّى لو ثبت فشلها، ويكتفون بالحدّ الأدنى ألا وهو تشكيك هؤلاء الشباب في دينهم، وينسون تلك الصلابة التي تدعوهم إلى مواجهة الأجنبي المستعمر. وليخرجوا الشباب من ميدان المواجهة، وهم طالما كانوا مشكلة للاستعمار عبر التاريخ.

وبالنظر إلى ما قيل أعلاه، يتبين أنّه على الذين يعملون باسم الدين في البلاد الإسلامية، سواء كانوا علماء دين أو قادة سياسيين واجتماعيين، عليهم أن يعلموا أنّ الله تعالى يراهم وأنّه سوف يُحاسبهم على ما يعملون وعلى

---

(1) سورة طه: الآية 127.

ما لا يعملون. وعليهم أن يحرصوا على سلامة البيئة التي يحضرون فيها وينشطون. بحيث يجرّدون العدوّ من أسلحته، ولتكون أعمالهم وسيرتهم الصالحة شكلًا من أشكال المواجهة والحراسة لعقائد الأجيال الآتية.

في ظلّ الحكم الديني، ينبغي الاهتمام بـ«أيتام آل محمد (ص)» والتعبير عن هذا الاهتمام والرعاية بسلامة العمل، وطرح الأفكار الراقية التي تدفع الغزو الثقافي، وتملأ الفراغ الروحي. الردّ على الشبهات مطلوب، والخطب والمواعظ في محلّها ولا يمكن الاستغناء عنها، والدفاع عن العقيدة بالتنظير وتقديم الأطروحات النظرية كذلك أيضًا؛ ولكنّ ذلك كلّه لا يكفي ولا يحقّق الغرض، ولا يحقّق الغرض بالحدّ الأعلى سوى العمل والإقدام على الإجراءات الملموسة، فهذا الجيل يلاحظ الأعمال أكثر من الأقوال، وهي أعمق أثرًا في نفسه ووجدانه. وكما يقول المعلّم الذي لا ينظر إلا إلى شمس التعاليم الإلهية، الإمام جعفر الصادق (ع)، وهو تجسيد حي للقرآن، ومطّلعٌ على أسرار النفس الإنسانية:

«كونوا دُعاة الناسِ بأعمالِكم، ولا تكونوا دعاةً بألسنتكم»[1].

الأمر الخامس عشر: المشكلة الأساس (الليبرالية الاقتصادية)

كثيرًا ما يحكم على الليبرالية بالإدانة في الكلام والمواقف، وغالبًا يكون المراد من الليبرالية في هذه المواقف الليبرالية الثقافية،؛ ولكن المشكلة الأساس والعدوّ الأصيل للثورة هو الليبراليّون الاقتصاديّون وسيطرتهم على مفاصل المجتمع ومفاتيحه. وأمّا مواجهة الليبرالية الثقافية، مع افتراض عدم الخطإ في تشخيص مصاديقها، لا تؤدّي إلى نتيجة تُذكر. فأمّ الفساد وأصله هي الليبرالية الاقتصادية، وهي ثمرة العلمانية الثقافية ونتيجتها الأكيدة. وكيف يمكن استقرار مثل هذه الثمرة في مجتمع يواجه الأمّ، ويحذّر منها؟

وفق هذه النظرية المهمة والحقيقة الاجتماعية الملموسة يذكر لنا القرآن

---

(1) الحميري، قرب الإسناد، ص77.

الكريم قصّة قارون (بوصفه رمزًا من رموز العلمانية الاقتصادية) ويشرح لنا صفاته؛ لكي يعرف أمثاله بصورة صحيحة. ولا يكتفي القرآن بالحديث عن الليبرالية الثقافية التي يمثّلها هامان.

بينما نحن اليوم نكتفي برفض الليبرالية الثقافية. ونعلن خشيتنا منها على انهيار المجتمع، ونصرّح بأنّها تهديد للثورة الإسلامية ومبادئها. ولا نلتفت إلى البعد الاقتصادي من الليبرالية ونتجاهل خطورة التكاثر والترف، وانتشار هاتين الظاهرتين في أوساطنا، ولا نعي بالشكل المطلوب الآثار المدمّرة لهما على بيئتنا.

في ختام هذا القسم نسرد حديثًا عن نبي الإسلام (ص) لكي ندرك مدى عظمة العدالة وأبعاد تطبيقها، وأهمية بناء «مجتمع قرآني» يكون بيئة حاضنة للتربية الإسلامية. وأدعو المخاطبين الأعزّاء، وخاصّةً الشباب منهم، إلى الانفتاح على هذه الأحاديث الشريفة لما فيها من خير وبركة، ولما تتضمّنه من تعاليم سامية.

عن رسول الله (ص): «عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سبعينَ سنة قيامِ ليلِها وصيامِ نهارِها»[1].

(1) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج72، ص352.

الفصل الرابع

أبعاد الصيرورة: مدخل إلى معرفة الدعاء

تمهيد

يستخدم الأنبياء (ع) الذين أتوا بالديانات السماوية وقادوا المدارس التربوية، أساليب عدّة من أجل تربية الروح الإنسانيّة ونشر المعارف بين أفراد المجتمع وشرائحه المختلفة، وإبلاغ رسائلهم الإلهية وتعزيز الوعي والمعرفة بين أفراد المجتمع وتعميق المبادئ الدينية وروح الإيمان والالتزام في المجتمع. وجميع هذه الأمور والأساليب تهدف إلى تعميق المعارف الدينية وتعزيز روح الالتزام بين أفراد المجتمع.

وتحظى أمور ثلاثة بأهمّية بالغة في عملية الصيرورة الإنسانية، ودفع الإنسان نحو الرقي والرفعة والانطلاق به إلى ذرى الرشد، وتحقيق المكتسبات المادية والروحية والفردية والاجتماعية والعلمية، وهي:

1 ـ مضمون الرسالة.

2 ـ التلقّي الصحيح لمضمون الرسالة.

3 ـ عمق نفوذ الرسالة في وجدان المتلقّي.

من الواضح أنّ الرسالة التي تتضمّن تعاليم راقية، وتُفهم بشكلٍ صحيح،

تنغرس قيمها في ضمائر المتلقّين وأفكارهم، تخترق التاريخ والجغرافيا وتنتشر طولًا وعرضًا، عبر الأجيال والأقاليم.

لذلك يجب أن يعرف أتباع الديانات السماوية تعاليمَ قادتهم بعمق، وأن يتلقّوا الرسالة ومضامينها السامية ويعملوا وفقًا لها؛ حتى لايضلّوا عن سواء السبيل. ولا ينبغي أن يؤدّي تغير بعض الوسائل والأساليب، بحسب بعض الأزمنة والأمكنة، إلى حيرتهم وضياعهم.

يعدّ الدعاء ومناجاة الله عزّ شأنه من الأساليب الإسلامية الهامّة من أجل تعليم أفراد المجتمع وهدايتهم، ومن أجل إبلاغ الرسالة الإلهية وتربية أبناء المجتمع الواحد كافّة. وللدعاء آثارٌ كثيرة جدًّا. والدعاء هو شكلٌ من أشكال الخطاب البشري والحديث مع الله سبحانه وتعالى. كما هو مفيدٌ للإنسانية في الحياة الأرضية أيضًا فردًا وجماعةً.

إنّ الاهتمام بالدعاء في الإسلام، بما هو أداة للانطلاق إلى ذروة التربية والتعليم، وسبب رئيس للوعي والمعرفة والالتزام وتهذيب الأخلاق، بالغٌ الأهمّية جدًّا. ولا يحظى هذا الأسلوب التربوي بمثل هذا الاهتمام في الديانات والمدارس الفكرية الأخرى؛ ولذلك لا يوجد أي مجال للحقائق والمعارف التربوية السامية والعلوم الإلهية الراقية والتعاليم المتعالية في المدارس الأخرى غير الإسلام. فيمكن أن نعتبر مدرسة الدعاء تيّارًا تربويًّا مؤثّرًا، ومدرسة للكمال الروحي والأخلاقي، وقاعدةً لنشر التعاليم والرسائل الإلهية.

لو درسنا الأدعية (وعلى رأسها أدعية القرآن الكريم والأدعية المرويّة عن النبي الأعظم (ص) والأئمّة الطاهرين (ع)) بدقّة، وأعدنا النظر في المعارف التي تتضمّنها، لأدركنا أنّ الدعاء يمكن عدّه جامعة تربوية كبيرة، تصلح للدرس من جهتي التزكية والتعليم، فضلًا عن تعلّم المعارف ونشر

التعاليم البنّاءة والعميقة. وليس الدعاء أبدًا تعبيرًا عن التوحّد والانطواء على الذات، وليس مدعاةً للضعف ولا تعبيرًا عن الانكسار.

الدعاء في الإسلام، ونقصد هنا ما سوى الأدعية القرآنية التي نزل بها الروح الأمين على قلب النبي الأكرم (ص)، شكلٌ من أشكال بيان تعاليم الوحي المؤثّر في بناء الإنسان والمجتمع الإنساني. وهو في الحقيقة تعبيرٌ آخر عن التعاليم القرآنية التي أنزلها الله تعالى عبر الوحي على رسول والآيات السماوية، وشرحٌ لها. ومن هنا، يمكن عدّ الأدعية تفسيرًا للقرآن العظيم، وبيانًا للمعارف الإلهية،وتأكيدًا للوحي.

من الذي يفسّرالوحي الإلهي ويتطرّق إلى المعارف الوحيانية ويفسّرها ويذكرها ويخلّد العلوم القرآنية والهداية السماوية (بشكل دقيق وموثوق به) لأبناء البشر في كافة القرون والأعصار والأمصار والآفاق؟ من الذي يتحلّى بالجدارة الكافية ليكون مبيّنًا لحقائق الوحي والبراهين الإلهية؟ الجواب عن هذين السؤالين واضحٌ تمامًا: إنّه النبي الأعظم (ص) وأوصياؤه الكرام (ع).

إنّ الرسول الأكرم (ص) وأوصياءه (ع) هم الوارثون للعلوم والمعارف الإلهية، فهم يستطيعون أن يتحمّلوا هذه المسؤولية ويتولّوا تربية الناس وتزكيتهم وتعليمهم.

نعم النبي الأعظم (ص) الذي نزل القرآن الكريم على قلبه المبارك والذي خضع للتعليم الإلهي، هو القادر على تنفيذ هذه المهمّة، وهو المؤهّل لتبيين العلوم الربّانية. وبعد النبي (ص) يتولّى هذا الدور أوصياؤه وولاته الذين نصّبهم لأداء هذه المهمّة قبل ارتحاله إلى الملكوت الأعلى وأهّلهم لأداء هذا الدور. وهم الذين كانوا تربّوا في بيت الوحي ومعدنه، ورشفوا من معين الوحي أصفاه. فهم القادرون على حمل لواء التربية الإلهيّة وتبيين الوحي الإلهي، وهم ذوو الجدارة بنشر المعارف المضيئة والوضيئة،

والحقائق الإسلامية السامية. وهم: إمام المشارق والمغارب علي بن أبي طالب (ع) وأبناؤه المعصومون (ع).

يقول الإمام علي بن أبي طالب (ع) في خطبته القاصعة:

«وقد علمتم موضعي من رسولِ الله بالقرابةِ القريبة والمنزلة الخَصيصة. وضعني في حِجره وأنا وليدٌ يضمُّني إلى صَدره... وكان يمضغ الشيءَ ثمّ يلقِّمُنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به (ص) من لدن أن كان فطيمًا أعظمَ ملكٍ من ملائكته يسلكُ به طريقَ المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليلَه ونهارَه. ولقد كنتُ أتبعه اتّباع الفصيل أثرَ أمّه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علمًا ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحِرَاء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نورَ الوحي والرسالة وأشمُّ ريحَ النبوة. ولقد سمعتُ رنّة الشيطانِ حين نزل الوحي عليه (ص)، فقلتُ: يا رسولَ الله ما هذه الرّنّة؟ فقال: «هذا الشيطانُ قد أيس من عبادته، إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى؛ إلا أنّك لست بنبي ولكنّك لوزيرٌ وإنّك لعلى خيرٍ»[1].

نعم! كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) منذ طفولته يرى نور الوحي والرسالة الإلهية، ويشمّ رائحة الوحي ويتعلّم العلوم الإلهية من لسان معلّم الوحي، ويتلقّى الحقائق القرآنية والتعاليم النبوية القيّمة من نبي الرحمة (ص)، حتى صار باب العلم والمعرفة النبوية. قال رسول الله (ص): «أنا مدينة العلمِ وعلي بابها»[2].

ويقول رسول الله (ص) في حديث الغدير المتواتر الذي يرويه علماء الشيعة الإمامية وأهل السنّة والجماعة: «افهموا مُحكم القرآن ولا تتّبعوا

---

(1) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، تحقيق: صالح، ص301.

(2) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج27، ص34.

متشابهه، ولن يفسّر ذلك لكم إلا مَن أنا آخذٌ بيده وشائلٌ بعَضُدِه ومُعلِّمُكم: إنّ من كنتُ مولاه فهذا علي مولاه»[1].

ثمّ تلقى الإمامان الحسن والحسين (ع) المعارف الإلهية والتعاليم المحمدية (ص) عن النبي الأعظم (ص) وأمير المؤمنين (ع)، وبعدهما ورث الإمام السجّاد (ع) العلوم الإلهية عن أبيه الإمام الحسين (ع)، وكذلك الأمر إلى يومنا الراهن وعصر الإمام المهدي (عج). إنّ أحاديث أهل بيت النبوّة (ع) حُجّة، وهي تعادل أحاديث رسول الله (ص). كما يقول العلامة الطباطبائي:«إنّ القرآن الكريم كمصدر التشريع الرئيس يقول إنّ ظواهر ألفاظ هذا الكتاب العزيز حجّة بالغة، ولا بدّ من أن نثق بها. وتعتبر القرآن الكريم وكلمات النبي الأعظم (ص) وأحاديثه مبيّنة الوحي القرآني وموثّقتها... فوفق الأحاديث المتواترة، كلّ ما جاء عن أئمة أهل البيت (ع) يعادل كلام رسول الله، كما إنّ أحاديثهم هي أحاديث النبي (ص)، وكان الأئمّة الطاهرون (ع) مميّزين في الإسلام ولهم دور مرموق ولا يقعون في الخطإ في تبيين المعارف الإسلامية السامية، كما إنّ كلامهم حجّة وموثوق به يقينًا»[2].

عندما نرجع إلى الأدعية المأثورة عن الأئمة الهادين المهديين (ع)، نرى نوعًا من التقارب بينها وبين الأدعية القرآنية أو الأدعية المأثورة عن النبي الأعظم (ص)، وهي تحمل الرسالة نفسها في الهداية، والمعارف التوحيدية، والأخلاق، والشيم، والتربية، والتعليم، والعدالة، والسياسة، والحماس، والصلابة.

أنزل الله القرآنَ الكريم من أجل أهدافٍ عدّة منها بناء الأمة الواحدة: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[3]؛ ليصير الدين الإلهي عالميًا ويُنقذ

---

(1) الصدوق، **الخصال**، ص219.

(2) الطباطبائي، **شيعه در اسلام**، ص45-46.

(3) سورة الأنبياء: الآية 92.

البشرية. ولا تتحقّق بعض أهداف الوحي ما لم يتوفّر العلماء، في المسائل الأساسية الكبرى على فهم مشتركٍ للقرآن مبني على القواعد العرفية للفهم، وعلى الأصول العقلائية لتفسير النصوص[1]. على أن يراعى في عملية الفهم والتفسير هذه خصوصيات الخطاب القرآني، وتفكيك تفسيره عن الأوهام والأفكار الدخيلة التي لا تنسجم مع طريقته في الخطاب.

وهذا هو ما تساعدنا عليه الأدعيةُ المأثورة عن المعصومين (ع)؛ أي تساعد في فهم القرآن وتفسيره وتبيين آياته. وفي الحقيقة، لو رجع الباحثون إلى الأدعية الصحيحة والموثوق بها، وتأمّلوا في معارفها ودقّقوا فيها بوعي ومعرفة، لعرفوا الحقائق السامية والتعاليم العظيمة التي تنطوي عليها هذه الأدعية (بمختلف المجالات والأبعاد التربوية والتعليمية). ولسنا نبالغ إذا قلنا إنّ الأدب الدعائي الذي ورثناه عن الأئمّة المعصومين (ع) لا مثيل له في أي كتابٍ مقدّسٍ، ولا في كلام أي مفكّر وفيلسوفٍ ولا عالمٍ، ولا يشبهه شيء في قدرته على تربية النفوس وتهذيبها، ولا في تأثيره على تنمية الروح وتطويرها. ولا شيء يفوق هذا الأدب الديني إلا القرآن، وهذا من المسلّمات فهذا الأدب نبت على ضفاف القرآن ونما في حواشيه وأطرافه.

وثمّة أدبٌ دعائي ونصوص تُستخدم لهذا الغرض في عددٍ من الأديان والمذاهب المختلفة، بل نجد مثل هذا الأمر عند بعض التيارات الفلسفية. ومن ذلك ما نجده في بعض النصوص الهرمسية ـ اليونانية التي يعبّر عنها هرمس بـ «الطباع التامّ» الذي يتوجّه إليه السالك ليطلب منه العون في مسيرته

---

(1) ولا غنى عن اعتماد بعض الأصول والقواعد لفهم الخطاب، فهي شرطٌ أساس في عمليّة التفاهم والتفهيم، ويؤدّي تجاهل هذه القواعد إلى الإخلال بالتفاهم بين الناس. ومن الملفت والعجيب أنّ بعض الكتّاب والباحثين يعارضون إخضاع تفسير القرآن لمثل هذه القواعد، ويطالبون بتحرير فهمها وعدم إخضاعه لقواعد الخطاب العرفيّ، وفي الوقت عينه يلتزمون بها في خطاباتهم وكتاباتهم، أليس من الجفاء والظلم، أن يُطالب هؤلاء بالتزام القواعد في فهم كلامهم، ويحرموا القرآن أو يمنعوا الناس من اعتماد هذه القواعد في تفسير القرآن وفهم خطابه؟

السلوكية، ومن ذلك أيضًا ما ذكره شيخ الإشراق في كتابه الواردات ولعلّه استفاده من الأدب الهرمسي. ولم يغفل الكتّاب الغربيون الدعاء وتحدّثوا عن أهميته وتأثيره على الإنسان، وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا السياق كتاب «الإنسان ذلك المجهول» المعروف والمشهور. ولكنّ المهمّ في هذا المجال هو المضمون والمحتوى الذي تنطوي عليه هذه الأدعية. والأدب الدعائي الموروث عن أهل العصمة بحر موّاج بالتربية على القيم السامية، وفيه الكثير من التعاليم التي توجّه الإنسان وتأخذ بيده نحو كماله المنشود الذي يستحقّ.

وعلى الرغم من وضوح ما تقدّم إلا أنّ ثمّة أمرًا يدعو إلى الأسف في ما يتعلّق بهذا الأدب التعليمي والمنبع الثرّ للتربية والتهذيب، وهو أنّ هذا الأدب مغفولٌ عنه حتّى عند مدّعي العلم والفضل، فلا تجدهم يستندون إليه ولا يلاحظونه في مقام البحث العلمي، وربّما كان بعضهم يجهله كلّ الجهل، وثمّة من يعرف ويرجع إلى الدعاء ولكن للقراءة وطلب الثواب والأجر، وعند طلب الحاجات من الله أو سؤال المغفرة، وليس للتعلّم والتعليم والتربية، واكتشاف أسرار النفس الإنسانية وإعادة صياغتها من جديد، ولا من أجل الاستفادة من هذا المعين الفياض في الإقدام والسير إلى الأمام.

ولمّا كان الأمر على هذا النحو فإنّ لغة الدعاء أيضًا بقيت مجهولة ولم تأخذ نصيبها من محاولة التعرّف إليها، ولست أقصد من كلمة لغة هنا العربية التي أعترف بأنّ ثمّة أسبابًا كثيرة حالت دون تعرّف غير العرب إليها، على الرغم من كونها لغة ديننا ونصوصنا الدينية؛ بل لغة معرفتنا الدينية على وجه العموم، وعلى الرغم من كون هذا الأمر مشكلةً في حدّ نفسه، فإنّ من الممكن تجاوزها ببعض التدبيرات الخاصّة بأن يتعلّم الإنسان العربية فيصير قادرًا على إدراكها وفهمها، أو يستعين ببعض العلماء لتفسير الدعاء، أو يستعين ببعض الترجمات الجيدة والموثوقة وقراءة ترجمة الدعاء بدل قراءته بلغته الأصلية التي ورد بها. إذًا مشكلة اللغة يمكن تجاوزها باعتماد بعض الحلول البديلة.

وما أقصده من اللغة هنا هو الأسلوب أو يمكن أن نعبّر بثقافة الدعاء فهي الأمر المجهول، وهذا أمرٌ يشارك العربُ فيه غير العرب، والمعرفة باللغة العربية لا تحلّ مشكلة الجهل بالأسلوب والثقافة التي يشتمل عليها هذا الأدب الذي نحن بصدد الحديث عنه. فما ينبغي معرفته هو هذا المستوى من اللغة الدعائية كي لا نتورّط في التأويل والتوجيه عند محاولة فهم هذه الأدعية.

ومن الأسباب التي أدّت إلى سوء التواصل مع الأدعية أنّها ينظر إليها بوصفها وسيلة للتقرّب إلى الله فحسب، ويقرأها من يقرأها طلبًا للثواب أو التماسًا للحاجات. وينظر إليها كثيرٌ من الناس على أنّها أوراد وأذكار تستخدم للتوسّل وطلب المغفرة. وهذا ظلمٌ للأدب الدعائي وخلل في العلاقة به. ومن هنا علينا ومن باب حراسة العقيدة والدفاع عن حياضها، أن نلفت إلى أنّ الدعاء في الإسلام هو ظاهرةٌ متعدّدة الأبعاد. وإذا فُهِمت هذه الظاهرة حقّ فهمها فإنّها سوف تولّد انفجارًا في الصيرورة الإنسانية وتطوّرًا كبيرًا.

الدعاء أسلوب للتعليم والتربية والتغيير، وتطرح الأدعية مواضيع إنسانية عدّة في إطارٍ واحدٍ يحمل رسائل متعدّدة في وقت واحدٍ. وبعبارة أخرى: تعلّمنا الأدعية أشياء كثيرة في آنٍ واحدٍ، ولا ينبغي أن نقصر نظرتنا إلى الدعاء على بعدٍ واحدٍ من أبعاده، ألا وهو بعد طلب الثواب ووضع الحاجات بين يدي الله.

لا تحتمل مثل هذه الكتابات الموجزة الدخول في نقاشات مفصّلة، واستعراض نماذج كثيرة والعمل على تحليلها؛ ولكن لا يحسن بنا إقفال البحث في هذا الأمر دون توضيح ماهية الدعاء الذي نقول إنّ له أبعادًا عدّة أكثر ممّا هو متعارف عليه بين الداعين والمهتمّين بالدعاء. وفي هذا الإطار ثمّة نقاط خمس تسهم في توضيح حقيقة الدعاء:

1 ـ معرفة آداب الدعاء.

2 ـ معرفة أوقاته.

3 ـ معرفة أبعاده.

4 ـ معرفة حالاته.

5 ـ معرفة أعماقه.

وفي ما يأتي سوف نحاول بيان هذه النقاط تباعًا ونكتفي بالإشارات بدل التطويل والتفصيل.

آداب الدعاء

آداب الدعاء وآداب قراءته كثيرةٌ. منها الطهارة (الغسل والوضوء وطهارة اللباس)، والسواك، واستقبال الكعبة الشريفة حال الدعاء، والجلوس تحت السماء، والجلوس في البرية، والتصدّق على الفقراء قبل الشروع فيه...

وكل هذه الآداب مفيدةٌ في حدّ نفسها ولها آثاره التربوية البنّاءة، على الرغم من ورود هذه الآداب في سياق قراءة الدعاء، فإنّ لها آثارًا وانعكاسات تربوية على حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، وتسهم في تمتين الوعي بالذات والاهتمام بالآخرين وتقوّي الروابط والعلاقات الاجتماعية بين الناس، وتدرّب الإنسان على التقيد بالنظام والانضباط.

أوقات الدعاء

رُبِطت بعض الأدعية بأوقات وأزمنة محدّدة، ودُعِي إلى قراءتها في أوقات خاصّة. وهذا الأمر له آثاره الهامّة، وفوائده الجمّة وأسراره. ومن هذه الأسرار ربط حركة الإنسان في الدعاء بحركة الكون والطبيعة التي تحتضن الإنسان؛ ليكون على انسجام وتواصلٍ مع الكون وحركته، وليسايره في مسيرته ويخضع لله تعالى مع خالق هذه الظواهر والمظاهر:

ـ السماوات والمجرّات.

ـ النور والفجر وطلوع الشمس.

ـ الشمس والظهر والغروب.

ـ الليل وعمقه وأسراره.

ـ يقظة السحر وخلوته وسرّه.

ـ الشفق بعد الفجر وقبل طلوع الشمس.

ـ الصحراء في صمتها.

ـ والبروق والرعود في ضجيجها.

ـ والأهلّة وآفاقها...

وبهذه الطريقة تتّصل حركة الكون بحركة الإنسان الباطنية، ويتحوّل الضمير والوجدان الإنساني إلى ما يشبه النهر الذي يتّصل بالمحيط في اتّصاله بالموجودات إلى أن يعبرها ويتجاوزها بعد مدّة من الزمان ليتّصل بمنبع الوجود كلّه وتنكشف له ساحة الجمال والجلال الإلهيين. وإذا أدرك المرء هذه العملية أسهم إدراكه هذا في وضعه في صراط التكامل والتعالي الوجودي، وكان هذا الإدراك وسيلة لتحقيق ما يأتي:

ـ توسعة الوجود الشخصي.

ـ عظمة الروح وتعاليها.

ـ انفتاح البصيرة.

ـ استنارة القلب.

ـ طهارة الضمير والباطن.

ـ توجيه الحضور.

وثمّة أوقات رُبِطت بها الأدعية ودعت الشريعة إلى الدعاء والعبادة فيها بشكلٍ مؤكّد، وهذا الربط له آثارٌ مهمّة في حياة الفرد والمجتمع، وفي ما يأتي نشير إلى أهمّ هذه الأوقات أو المناسبات والأحداث:

1 ـ ما يرتبط بالحياة المادية

أ- عند الكوارث والأحداث الطبيعية، كالبرق، والرعد، والزلازل، والعواصف، والفيضانات، والسيول، والخسوف والكسوف.

ب- عند الأحداث والمستجدّات الاجتماعية، كالحروب، والصراعات، والأيام الخاصّة الملحمية في تاريخ الأمّة.

ج- بعض مناسبات الحياة اليومية، كالسفر، واختيار الزوجة، وولادة الطفل، وشراء الثياب الجديدة، والانتقال إلى بيت جديدٍ، وعند رأس السنة وعيد النوروز.

د- عند رؤية المظاهر الجميلة والنعم: النظر إلى السماء والنجوم، وشمّ رائحة الزهور والرياحين، ورؤية الفواكه في أوّل موسمها.

2 ـ ما يرتبط بالحياة الروحية

أ- ليلة الجمعة ويومها، واليوم الأوّل من كلّ شهر، وليالي شهر رمضان المبارك وأيامه، وليلة عرفة ويومها، وليلة مبعث النبي (ص)، واليوم الخامس عشر من شهر شعبان المعظّم (التناغم مع بعض الأوقات الهامة).

ب- يوم المبعث ويوم عيد الغدير ويوم عيد الأضحى وليالي القدر ويوم عاشوراء (التناغم مع الأحداث الهامة).

في هذا المجال، نشير إلى حديث عن الإمام الصادق (ع) عن آبائه الطاهرين (ع) عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) أنّه قال:

«اغتنموا الدعاء عند خمسة مواطن: عند قراءة القرآن، وعند الأذان، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الصفّين للشهادة، وعند دعوة المظلوم فإنّها ليس لها حجابٌ دون العرش»[1].

---

(1) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج7، ص65.

وما ذكرناه ما هو إلا نماذج ممّا يمكن ذكره، وقد ورد في الأخبار ربط بعض الأعمال العبادية بالمكان بدل الزمان. ومن هذه الأماكن: مكّة المكرّمة والكعبة الشريفة، ومسجد النبي (ص)، ومسجد الكوفة، ومسجد السهلة، والمساجد الجامعة للمدن والأمكنة الأخرى.

أبعاد الدعاء

أشرنا سابقًا إلى أنّ للدعاء أبعادًا عدّة ورسائل يراد إيصالها بواسطة هذه الأدعية والأعمال العبادية. ولا بدّ من الاهتمام بهذه الأدعية لنيل أهداف أصحابها وغاياتهم. ولمزيد من التوضيح ربّما نعود إلى هذه النقطة لاحقًا.

أحوال الداعي

من الأمور التي حظيت باهتمام الثقافة الدعائية والعبادية في الإسلام، الحالة التي ينبغي أن يكون الداعي عليها عند الدعاء. وهذا هو «الأدب التام»، و«الخضوع الشامل»، و«حضور القلب». وقراءة الدعاء وعبادة الله تعالى دون حضور القلب كالجسد الذي لا روح فيه. فكما إنّ الجسد لا يتحرّك ولا ينتقل من مكان إلى آخر دون الروح، فكذلك الداعي لا يعرج إلى منازل القرب دون حضور القلب. وعندما يغيب القلب حال الدعاء وينصرف من الدعاء إلى أشياء أخرى، يفقد الدعاء محرّكيته، ولا ترتّب على الدعاء والعمل العبادي الآثار المتوخّاة منهما، ولا تتحقّق حالة المناجاة مع الله.

وفي هذا السياق يقع الحديث عن تصفية الإنسان قلبه من الحسد والكبر والحقد وسائر الرذائل الأخلاقية. وهنا يصدق قول الشاعر الإيراني: ما لم يتجرّد الإنسان من الأنا فلا يتوقّعن أن ينال الجذب، كما أنّ القشّة لا تجذبها الكهرباء ما لم تتجرّد من الحبّة التي في داخلها.

ولأجل هذا نجد أنّ تعاليم المعصومين (ع) وأحاديثهم مشحونة بالكلام على ضرورة حضور القلب، والالتفات إلى مضامين الأدعية والعبادات.

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أنّ الصلاة المقبولة عند الله عزّ وجلّ هي الصلاة التي تقترن بحضور القلب والتفكّر[1]. وقد ورد في هذه الأحاديث أنّ الصلاة قد لا تقبل كلّها، وإنّما يقبل منها ما أدّاه الإنسان مع حضور القلب، فربّ صلاة يقبل نصفها أو ثلثها أو ركوع أو سجود منها وهكذا. وربّ صلاة من مصلٍّ لا يقبل منها إلا قراءة قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2].

وحضور القلب مفهوم واضح المعنى، وهو يدلّ على الالتفات إلى الله والتوجّه إليه حال ممارسة الدعاء أو الصلاة وغيرهما من الأعمال العبادية، بحيث يخلي الإنسان وجدانه وضميره من كلّ ما خلا الله، من مظاهر الدنيا وتعلّقاتها، ويتحقّق ذلك بإدارة الظهر إلى كلّ شيء عند توجيه الوجه نحو الله، وذلك حتّى لا ينشغل الإنسان بأي خاطرٍ أو وسواسٍ آخر، ولا يلتفت إلا إلى ساحة جمال الله وجلاله، ولطفه الرحماني والرحيمي.

وحضور القلب حالة لها مراحل ومراتب، ويمكن للإنسان أن يتدرّب عليها بالتدريج ويرتقي من مرتبة منها إلى مرتبة أعلى. وعلى الإنسان أن لا يصغي إلى وسوسات الشيطان الذي يردّد ويحاول أن يلقي في روع الإنسان أنّه لا يقدر على تخلية نفسه، وتوجيه همّه وهمّته نحو الله تعالى. وعليه أن يتوسّل إلى ذلك الوسائل التي تساعده على مبتغاه المطلوب، ومن ذلك التوسّل بالإمام المهدي (ع) وبذل ما أوتي من جهد وقوّة في هذا المجال. وعليه أن يتذكّر قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[3]، فما يبقى للإنسان هو الجهود التي يبذلها في هذا الصدد.

ولا بدّ من الاهتمام بمعاني الصلاة ومعاني أفعالها وحركاته وبالدعاء،

---

(1) الفيض الكاشاني، الوافي، ج8، ص847.

(2) سورة الفاتحة: الآية 5.

(3) سورة النجم: الآية 39.

مع عدم الغفلة عن المقدّمات. ومن الأفضل أن نتعرّف إلى أسرار الصلاة والصوم والحجّ وغيرها من العبادات؛ لكي يتعمّق حضور القلب عندنا، وننال شرف الخضوع والخشوع في الصلاة والدعاء والعبادة. وهذه الحالات هي التي تحوّل الصلاة من صلاة للبدن إلى صلاة للقلب والروح، وتحوّل العبادة الجسدية إلى عبادة قلبية، ليتبع البدن القلب وليس العكس.

وما ذُكِر حتى الآن يستحقّ التأمّل والانتباه، ليعي الإنسان مدى أهمية هذه الإلماعات ومدى تأثير هذه الأحوال في البناء النفسي والروحي. وهنا يتحقّق المحو الوجودي الذاتي، ويخفت لون الذاتية الفاقع ويخرج القلب من حالة الغفلة إلى حالة اليقظة وشرح الصدر وسعته. فيتحرّر العابد من الخواطر والأوهام وموجبات القلق، ويقف على ساحل الحضور خالصًا من الشوائب مبرّأً من الحجب. وفي مثل هذه الحالات ينعتق الإنسان من الأشياء الزائلة الخيالية ويتّصل بمنبع الخلود. وهنا يتبين عدم صحّة القول المشهور: «أين ابن التراب من ربّ الأرباب؟!»، بلى إنّ القلب الحاضر المتحرّر من العلائق الترابية يصير أهلًا للاتّصال بربّ الأرباب، وينقله الدعاء أو العبادة إلى مرتبة الملائكة الكرّوبيين، ويصدق عليه: «اللامتناهي في الصغر يتّصل باللامتناهي في العظمة والكبر».

يقال عادةً: لا ينبغي أن يستغلّ الدعاء لطلب الحاجة من الله، بل ينبغي أن يكون لطلب الله نفسه، ولو في بعض الحالات. إنّ الدعاء أناشيد الخلود التي يتلوها الإنسان فتفتح له أبواب السماء الفضية. والداعي يذكر بدعائه ربّ الأزل والأبد ومنشأ الوجود ومصدره، وهو يثني عليه في دعائه، وأي مقام أرفع من مقام الثناء على الله تعالى؟! أي مقامٍ أرفع من مقامٍ يعبّر فيه الإنسان عن عشقه ومحبّته لله تعالى، وأي مقامٍ أرفعَ وأرقى منزلةً من وقوف الإنسان بين يدي الله يعبّر فيه عن فقده الله تعالى دون أن يلتفت إلى أي شيء آخر غيره:

«فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربي، صبرتُ على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟»[1].

أعماق الدعاء

تتعلق هذه المسألة بالأبعاد الروحية للعبادة والأدعية، وتحتلّ مكانة مرموقة، ولعلّها تحظى بأهمية أكبر من أهمية حضور القلب. فبعد عبور الإنسان من منطقة الغفلة (غفلة القلب والفكر) وخروجه من جماعة الغافلين ينال سمة حضور القلب، ثم بعد ذلك يعبر إلى مرحلة أعلى فيجد نفسه حاضرًا بين يدي الله تعالى، وهذا المعنى أعمق من معنى حضور القلب.

ورد في بعض الأحاديث أنّ الله يستجيب للإنسان دعاءه عندما يبدأ القلب بالاشتعال ويتصاعد الدخان منه، والاشتعال مقدّمة للحالة التي ورد التعبير عنها في الأدعية الشريفة والمناجاة بحالة « كمال الانقطاع». يقول الشاعر عبد العلي نگارنده:

وصلت الفراشة في نهاية المطاف واحترقت، فالعشق والحبّ هما اللذان يختمان القصص والحكايات.

وقد ذكر الفلاسفة الكبار، منذ العصور القديمة، مجموعة من الأحوال إذا استطاع الإنسان تحقيقها في نفسه خلال طيّه مسيرة التكامل، تساعده تلك الأحوال على نيل المراتب العالية التي بعدها. والوصول إلى تلك الأحوال الكمالية والمقامات الصعودية. وذُكِرت لهذه الأحوال صيغٌ عدّة تختلف في بعض الأبعاد وتلتقي في بعضها الآخر، وتختلف باختلاف المدارس الفكرية والفلسفية التي ينتمي عليها هذا الفيلسوف أو ذاك. وثمّة نسخ عديدة موجودة في تقاليد فكرية وفلسفية شتّى، مثل: الأوبانيشاد، أو في تاسوعات أفلوطين، وفي بعض كلمات أبي نصر الفارابي وخاصة في كتابه الثمرة المرضيّة، وفي

(1) عباس القمي، **مفاتيح الجنان**، دعاء كميل بن زياد.

آثار ابن سينا وعلى نحو الخصوص كتابه الإشارات والتنبيهات في النمط الثالث الفصل الأوّل، وفي آثار ابن طفيل الأندلسي، ورسالة حي بن يقظان، وأخيرًا في قبسات المير داماد وغير هذا الكتاب من كتبه.

يقول الحكيم المسلم الكبير أبو نصر الفارابي:

«إن لك منك غطاء فضلًا عن لباسك من البدن، فاجتهد أن ترفع الحجاب وتتجرّد، وحينئذ تلحق. فلا تسل عما تباشره، فإن ألِمت فويلٌ لك، وإن سلِمت فطوبى لك. وأنت في بدنك تكون كأنّك لست في بدنك، وكأنّك في صقع الملكوت، فترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فاتّخذ لك عند الحق عهداً، إلى أن تأتيه فردًا»[1].

يشير الفارابي في هذا النصّ إلى المشاهدات والمكاشفات التي تحصل لأهل السير والسلوك، في مدارج القرب وأوديته. ومن المعلوم عند أهل هذا الفنّ أنّ على السالك أن يواصل السير نحو المقصد النهائي والغاية النهائية وهي الله ولا ينشغل بما يراه ولا ينجذب له أو ينشدّ إليه.

ويقول شيخ الإشراق السهروردي في هذا المجال:

«وإذا كان العالم في جملته، قد برز من إشراق الله وفيضه، فالنفس تصل كذلك إلى بهجتها بواسطة الفيض والإشراق. فإذا ما تجرّدنا عن الملذّات الجسمية، تجلّى علينا نورٌ إلهي لا ينقطع مدده عنّا. وهذا النور صادر عن كائن منزلته منّا كمنزلة الأب والسيد الأعظم للنوع الإنساني، وهو الواهب لجميع الصور ومصدر النفوس على اختلافها»[2].

وربّما جرّب كلّ واحدٍ من الناس بعض هذه الحالات الروحية التي يتحدّث عنها العظماء، أثناء أداء بعض الأعمال والعبادات، كالصلاة، أو السعي بين الصفا والمروة والطواف. وما تقدّم هو ما كنّا نرمي إليه حين

(1) محمد الفارابي، **الرسائل**، ص17.

(2) السهروردي، **هياكل النور**، ص28.

أشرنا إلى أنّ الدعاء مدرسةٌ عامّة للتربية والتزكية، للفرد والمجتمع. نسأل الله تعالى أن يمنّ علينا بالتوفيق لنيل هذه الحالات وارتقاء هذه المراتب العالية.

التتميم الأوّل: في لغة الدعاء وفلسفته

بضع نقاط

من باب تكميل البحث عن الدعاء وتتميمه ثمّة نقاط جديرة بالذكر والانتباه:

النقطة الأولى: آفاق التعبير في الدعاء

الأفضل في الدعاء استخدام الألفاظ الفصيحة، والعبارات البليغة والمؤثّرة التي تجذب القلوب وتحتوي على المضامين العميقة. وفي الأدعية التي وردت عن أهل البيت (ع) آفاقٌ تعبيرية من شأنها أن توقظ القلوب الهاجعة، وتثير الفطرة الخامدة، وتصقل الأرواح، وتهدم الجدران البالية التي تحاصر الوجود الإنساني، وتعيد إلى الإنسان صلابته وتماسكه، وتعيد تصويب بوصلة الفكر والعمل عند الإنسان وتوجّهه نحو الأعلى.

النقطة الثانية: فلسفة الدعاء ونتائجه

إنّ اختيار الدعاء لنقل الرسائل والمفاهيم إلى المتلقّين له حكمٌ وفوائدُ جمّةٌ، منها:

1 ـ الالتفات إلى الله تعالى

فالدعاء يذكّر الإنسان بربّ العزّة سبحانه، ويقطع صلة القلب بهذا وذاك ويصله بمقام القرب وساحة القدس الإلهي، بحيث لا يبقى للإنسان أي طلبٍ أو حاجة يرفعها إلى غير الله تعالى. ويقوّي الدعاء القلب، ويحقّق للداعي خلوةً مع الله تعالى يكشف فيها الإنسان أسراره ويبثّ شكاياته. وإذا

كان هذا الإنسان من أهل التوحيد والمعرفة يطلب القرب من الله وينوّر قلبه لينتقل من حالة الحصار والمحدودية إلى حالة «الانقطاع إلى الله».

ولأجل هذا أكّد الأئمّة الطاهرون (ع) على تذكّر عظمة الله سبحانه وتعالى والانشغال بحمده ومدحه وتمجيده قبل الدعاء. ومن هنا نجد أنّ بعض الأدعية تبدأ أوّل ما تبدأ بحمد الله والثناء عليه.

2 ـ معرفة منزلة الأنبياء والأوصياء (ع)

مكانة الأنبياء والأوصياء الكرام (عليهم أفضل الصلوات والتحيات) عالية جدًّا عند الله تعالى، فهم العارفون بأسراره تعالى، والفائزون بكرامته، وهم الأمناء على سرّه، والحافظون لحدوده.

والنظر إلى هذا الأمر، يُعدّ التعرّف إلى حالاتهم العبادية من مراتب المعرفة ودرجاتها. يمكن للإنسان أن يفهم مدى عظمة النبي الأعظم (ص) والصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء (ع) والأئمّة الهداة الطاهرين (ع) وعلوّ شأنهم ومكانتهم المرموقة عند الله (عزّ وجلّ) والجاه العظيم والشأن الكبير الذي لهم عنده، من خلال النظر في الأدعية الصادرة عنهم أو المرتبطة بهم بشكلٍ أو بآخر. ومن هنا نلاحظ أنّ بعض الأدعية تبدأ بالصلاة على النبي وآله، بما هم خير مقرّب وخير وسيلة إلى الله تعالى.

3 ـ عمق التأثير

للأدعية قدرة عالية على التأثير في الإنسان فهي تنفذ أسرع من أي كلام آخر إلى قلوب المخاطبين. وقد أشرنا إلى هذا الأمر من قبل، وعندما يقرأ الإنسان وخاصّة عندما يكرّر قراءته يحصل له ما يشبه التلقين المباشر أو غير المباشر، وتستقرّ معاني الدعاء ومضامينه في نفسه وباطنه، خاصّة إذا أضفنا إلى القراءة الواعية الحالة الروحية التي ينبغي أن يكون الداعي عليها حين الدعاء من صفاء الروح وحضور القلب. ولا شكّ في أنّ الزمان له تأثيره

في المساعدة على تعميق أثر الدعاء وغرس نتائجه في النفس الإنسانية. ولا ننسَ دور المكان أيضًا.

فعندما يقرأ الإنسان المضامين السامية ويطلب من الله في دعائه كما في زياراته، أن يوفّقه لـ:

- أن لا يخشى سوى الله.
- ولا يأمل غيره ولا يتوكّل على سواه.
- أن ينصر الحقّ والعدل.
- يواجه الظلم والظالمين.
- أن يساعد المدافعين عن ثغور المسلمين.
- أن لا ينسى الشهداء وتضحياتهم.
- أن يعرف حقّ الأئمّة.
- أن يفهم القرآن حقّ فهمه.
- أن يصلح حاله ويدخله في عداد المتّقين.
- أن يغفر ذنوبه ويتوب عليه.

وغير هذا من عشرات الطلبات والحاجات التي يرفعها الداعي إلى الله ويضعها بين يديه. فإنّ هذه الأدعية عندما يكرّرها الإنسان بوعي وبصيرةٍ تسري مضامينها إلى قلب الداعي ونفسه، وتقوده إلى الهدف الذي يريده الله للإنسان أن يصل إليه، ومن أجله خلقه.

4 ـ نشر ثقافة المعرفة

إنّ الدعاء ونصوص الأدعية من الطرق المؤثّرة إلى حدٍّ كبيرٍ في نشر المعرفة والثقافة والأخلاق العالية الإنسانية، بين الناس عمومًا وبين عامّة الناس على وجه التحديد. والأدعية تشتمل على مضامين معرفية وثقافية

متنوّعة وعميقة، وقراءتها بين الناس تؤدّي إلى انتشار هذه المضامين السامية بينهم، وإلى تحويل هذه المضامين وتعاليمها إلى ثقافة عامّة؛ الأمر الذي يسهم في تعميق الوعي والمعرفة بين الناس.

5 ـ الاستمرار في إبلاغ الرسالة

عندما تمرّ الأمّـة في فترة عصيبة من حكم الجبّارين والمستبدّين، يكون الدعاء أفضل الأساليب لمتابعة الدعوة الإسلامية؛ وذلك أنّ هؤلاء المستبدّين يحولون دون نشر الدعوة بالطرق المتعارفة التي يعمل بها عادةً في الظروف الطبيعية، وفي هذه الحالة يكون اللجوء إلى الدعاء هو السبيل الوحيد لمتابعة الدعوة إلى القيم الدينية، وخاصّة قيمتي العدل والحقّ. وقد استُخدِم الدعاء في بعض الفترات من تاريخ الأمّة لنيل الأهداف التي أشرنا إليها سابقًا وهذا الهدف الأخير على وجه التحديد.

6 ـ تأسيس العلاقة الروحية بين أعضاء المجتمع

يندب الأدب الدعائي الإسلامي الداعي إلى طلب ما يطلب له ولعددٍ كبير من الناس وتتضمّن الأدعية المأثورة كثيرًا من الطلبات والحاجات للآباء والأمهات، والأبناء والبنات، والإخـوة والأخـوات، والأصدقاء والأقارب، والأساتذة والتلاميذ، ومن لهم حقوق على الداعي، وأهل الثغور وجنود الإسلام، والخدم، والذين نالهم ظلمٌ من الداعي بشكلٍ أو بآخر. بل ورد أنّه يستحسن تقديم المدعوّ لهم على الداعي نفسه. وورد في الأحاديث أنّ لاستجابة الدعاء أسبابًا مساعدة منها، الدعاء لأربعين شخصًا قبل أن يبدأ الإنسان بالدعاء لنفسه[1].

وورد في الأخبار عن سيرة الصديقّة الكبرى فاطمة الزهراء (ع) أنّها

(1) انظر: عباس القمي، **سفينة البحار**، ج2، ص447.

كانت تكثر من الدعاء لغيرها، ولمّا سُئِلت عن ذلك أجابت، بقولها: «الجار ثمّ الدار»[1].

وروي عن الإمام الصادق (ع): «الدعاءُ لأخيك بظهرِ الغيبِ يسوقُ إلى الداعي الرزقَ، ويصرفُ عنه البلاءَ، ويقول الملك: لك مثلُ ذلك»[2].

وروي عنه (ع) أيضًا بأسانيد عدّة أنّه قال: «إنّ من قال في كلّ يوم خمسًا وعشرين مرّة: «اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات» كتب الله له بعدد كلّ مؤمنٍ مضى وكلّ مؤمنٍ بقي إلى يوم القيامة حسنةً، ومحا عنه سيّئة، ورفع له درجة»[3].

7 ـ التخلّص من الأنانية

يروي العالم الكبير والمحدّث الجليل الشيخ أبو جعفر الصدوق (ره) في كتابه: من لا يحضره الفقيه حديثًا عن رسول الله (ص) يقول فيه: «من صلّى بقومٍ فاختصّ نفسَه بالدعاء دونهم فقد خانهم»[4].

ويكشف هذا الحديث النبوي عن مدى تأثير الاتّجاه التربوي في الدعاء في التربية على الإنسانية ومحبّة الغير، وترك الأنانية والاهتمام بالذات. ويكشف إلى أي مدى هو مؤثّرٌ في البناء الروحي للمجتمع بحيث يربط أعضاءه بعضهم ببعضهم الآخر، بل يربط المجتمعات البشرية بعضها ببعضٍ. الأمر الذي يؤدّي إلى تحقيق مفهوم الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضوٌ تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى.

بلى، إنّ للأدعية تأثيرها الكبير والبنّاء على الأفراد والجماعات؛ ولكن

(1) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج7، ص113.

(2) المصدر نفسه، ص110.

(3) عباس القمي، **سفينة البحار**، ج2، ص449.

(4) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج7، ص106.

بشرط أن لا ينظر إلى الدعاء على أنّه وسيلة للأنس الشخصي، بل ينظر إليه بما هو معلّم للعقل النظري منه والعملي. والمقصود من الأول العقل الذي يدرك ويعمل في مجال التوحيد والنبوّة والمعاد، ومعرفة القرآن والولي، ومعرفة الكائنات وآثار الأعمال. والمقصود من العقل العملي ذلك العقل الذي يدرك الحقوق الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، ويدرك قواعد القضاء والمعيشة وسائر ما يجب على الإنسان فعله. فهذه الأمور كلّها يمكن اكتشاف أصولها وقواعدها في الأدعية المأثورة.

8 ـ إيصال الاستعدادات إلى مرحلة الفعل

أكثر الأدعية تبين كثيرًا من أبعاد الحياة العقدية والفكرية والتربوية والأخلاقية والثقافية والاقتصادية والسياسية والدفاعية، الفردية والاجتماعية، وذلك كلّه شرط أن نحسن تفسيرها ونجيد فهمها.

وتتضمّن الأدعية بيان أحوال القلب والنفس الإنسانية السيئ منها والجيد، وهي تشترك في هذه الخاصية مع علم النفس الجديد. ومن الصفات النفسية والأحوال التي تُذكر في الأدعية: الاستكبار، والتعالي، والجمود والجحود، والقسوة... وهذه الصفات للقلب تحول بينه وبين الخضوع للحقّ وقبول المسؤولية والتكليف. وعندما يتّصف القلب بهذه الصفات لا شيء يعيد إليه اعتداله وتوازنه مثل الدعاء.

ولا شيء يحلّ محلّ الدعاء حتّى الموعظة؛ وذلك لأنّ الدعاء موعظةٌ ذاتية وهو يجعل الإنسان في خلوةٍ مع نفسه فيعيد تقويم أوضاعها والنظر في أحوالها. ويحوّل الإنسان من حالة التكبّر والإعراض إلى حال الخضوع والاستسلام والاستعداد لتقبّل التكليف وتحمّل المسؤولية. وربّما ينكشف سرّ قول النبي (ص): «الدعاء مخّ العبادة»[1] في هذه النقطة بالذات.

---

(1) المتّقي الهندي، كنز العمال، ج2، ص62.

وروى الشيخ الطبرسي عن الإمام أبي جعفر الباقر (ع) أنّه سُئل: أيّهما أفضل: قراءة القرآن أم كثرة الدعاء؟ فقال: «كثرة الدعاء أفضل»[1].

فالإنسان في لحظات الدعاء يجعل نفسه الجاهلة الضعيفة المحتاجة الناقصة والآثمة في مقابل وبين يدي الكمال المطلق والجمال الأتمّ الإلهي، ويطلب من معدن الجمال والجلال والكمال النظر إلى الذات نظرة تجميل وتكميل، وذلك حين يقول الداعي: «وانظر إلينا نظرة رحيمة نستكمل بها الكرامة عندك...»[2].

وعلى ضوء هذه الطريقة التربوية نجد أنّ مدرسة الوحي تدخل تعاليمها ومعارفها بطرقٍ شتّى منها هذه الطريقة أي طريقة التلقين عبر الدعاء وهذه بضعة نماذج نتلوها:

- تأسيس علاقة الحبّ بين العبد والله: «وأسألك مستأنسًا، لا خائفًا ولا وجلًا...»[3].

- الدعاء عند الغضب ومن أجل كظم الغيظ.

- دعاء مكارم الأخلاق في الصحيفة السجادية الذي يشتمل على أصول المعارف الإلهية والتوحيدية والأخلاقية.

- الدعاء الذي يقرأ بعد زيارة عاشوراء، ويبين مقامات الأئمّة المعصومين (ع) وموقعهم.

- الأدعية التي تذكّرنا بحقوق الناس التي لا بدّ من الالتفات إليها.

وثمّة أدعية من هذا النوع كثيرةٌ بعضها يثير الحماس في نفس الإنسان ويدعوه إلى تسطير أروع الملاحم، ومن ذلك قول الداعي في دعاء الافتتاح

---

(1) الطبرسي، **مجمع البيان**، ج7، ص317.

(2) عباس القمي، **مفاتيح الجنان**، دعاء الندبة.

(3) المصدر نفسه، دعاء الافتتاح.

الذي تُستحبّ قراءته في ليالي شهر رمضان المبارك: «وقتلًا في سبيلك فوفّق لنا». ومن المعلوم أنّ عشق الشهادة هو الذي يجعل المجتمع حيًّا مستعدًّا للتضحية.

وهكذا يتبين أنّ أولياء الله تعالى والأئمّة المعصومين (ع) يستفيدون من لغة الدعاء ولسانه، لبثّ الهداية ونشر الفضيلة، ومعالجة الآفات الاجتماعية والفردية، وتوجيه العواطف والمشاعر الإنسانية في الاتّجاه الصحيح، وبكلمة موجزة يستخدمون الدعاء من أجل تحويل الصفات الإنسانية ونقلها من مرحلة الاستعداد إلى مرحلة الفعل.

9 ـ بثّ روح الجدّ والسعي

من الآثار التي ترتّب على الدعاء لفت نظر الداعي إلى أهمّية الدنيا واستغلال فرصة العيش فيها للاستفادة منها في ما ينفع الإنسان، من خلال بثّ روح الجهد والجهاد في النفس وإنّ قراءة الأدعية، وبخاصّةٍ مع حضور القلب والالتفات إلى المعاني،تؤدّي دورًا بارزًا في جميع ميادين الحياة المادية والروحية، وفي علاقة الإنسان بالله تعالى، وتعمّق علاقات البشر في ما بينهم، وتضفي على كلّ هذه الميادين والساحات الجدّية وروح الاهتمام.

10 ـ اهتزاز الروح على الإيقاع اللفظي للأدعية

أشرنا سابقًا إلى دور البلاغة وجمال الأسلوب في الدعاء. وهنا نشير إلى أهمية الموسيقى التي تشتمل عليها الأدعية ومدى تأثير هذا الإيقاع الموسيقي للغة الدعاء على نفس الداعي وروحه. وهذه الموسيقى اللفظية تسهم في تعميق أثر الدعاء وترسيخ نتائجه في النفس الإنسانية، وتحمل الداعي وتحلّق به في آفاق روحية ومعنوية لا شيء أسمى منها ولا أعلى.

وهذه الخاصّية مبثوثة في الأدعية. وهو أمرٌ له أهمية كبيرة ويزيد من جاذبية الدعاء ويعطيه تأثيرًا يكاد يقترب من الإعجاز.

النقطة الثالثة: حضور الدعاء في الأديانِ وتقاليد الشعوب

الدعاء والابتهال إلى الله تعالى، بما هو خالق الكون وبارئ البشرية، والتوسّل بالأشخاص المقدّسين بغية الوصول إلى الحاجات واستجابة الدعاء، مع ملاحظة أنّ الاستجابة بيد الله وحده وتحقيق الحاجات مرهونةٌ بإذنه ورضاه على الرغم من نفع التوسّل وثبوته شرعًا، كلّ هذه الأمور حاضرةٌ عند المذاهب والأقوام، حتى يومنا الراهن هذا في شرق الأرض وغربها، بدءًا من المدن الكبرى في الحضارات المعاصرة، وصولًا إلى أقصى المعمورة والمناطق النائية التي لم تصل إليها الحضارة المعاصرة. فإنّك لا تكاد تجد أمّة لم تجرّب هذه الظاهرة ولم تعرفها، ولم يكن الدعاء والابتهال جزءًا من تقاليدها الدينية ومفردةً من مفردات عقيدتها[1]. وإنّ هذه الظاهرة من الأدلّة على فطرية الاعتقاد بالله تعالى، وفطرية البحث عنه والتوجّه إليه. ومن الأدلّة الواضحة على أنّ الإنسان يدرك بفطرته وجود قوّة مطلقة لها السلطة الكاملة على مقاليد الكون كلّه، ومن أجل هذا يمكن اللجوء إليها عند الحاجة وطلب العون منها في الملمّات، والركون إليها في النوائب مع ما لهذا اللجوء من أثر في اطمئنان النفس وسكونها.

نعم! إنّ ظاهرة الدعاء موجودةٌ وعامّةٌ بين البشرية كلّها؛ ولكنّ ما يميز التعاليم الإسلامية في باب الدعاء هو البعد التربوي فيه، واشتمال الأدعية الإسلامية على مضامين تربوية راقية لا نظير لها في سائر التقاليد الدينية. ويبلغ هذا الاختلاف حدًّا كبيرًا يمنع أو على الأقل يجعل المقارنة بين المدرسة الإسلامية في الدعاء وسائر المدارس كالمقارنة بين الصفوف الابتدائية في المدارس وبين المراحل التعليمية العالية في الجامعات.

---

(1) فالمسيحيّون مثلًا يؤمنون بقداسة مريم (ع) ويشفّعونها في حوائجهم ويذكرونها في أدعيتهم وصلواتهم، وهذا الأمر معروفٌ مشهورٌ بينهم.

التتميم الثاني

حتمية تأثير الدعاء على مصير الإنسان

1 ـ ورد في الأحاديث المأثورة عن المعصومين (ع) نقطةٌ على درجة عالية من الأهمية وهي أنّ الدعاء يغيّر المصير المحتوم للإنسان. وهذه حقيقة قرآنيّة موجودةٌ في معارف أهل البيت (ع)؛ إذ يبدو أنّ للدعاء آثارًا في ما يعرف في الثقافة القرآنية بلوح أو عالم «المحو» و«الإثبات»: ﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[1].

وينبغي أن لا نُغفِل هذه الركيزة الرئيسة والفرصة الطيّبة لتغيير مصير الإنسان وتوجيهه إلى الخير والسعادة الأبدية. قال الإمام الباقر (ع): «الدعاءُ يَردّ القضاءَ وقد أُبرِم إبرامًا»[2].

2 ـ يُعدّ حضور القلب والاهتمام بمضامين الدعاء والثقة بالله تعالى، أحد الشروط لتأثير الدعاء. ويمكن فهم أهمّية حضور القلب من تعاليم الأئمة (ع):

أـ على الداعي أن يكون حاضر القلب عند الدعاء، فقد ورد عن الإمام الصادق (ع) قوله: «إذا دَعوتَ فأقبِل بقَلبك، ثمّ استيقن بالإجابة»[3].

بـ على الداعي انتظار الحالة المناسبة للدعاء أي رقّة القلب، فقد ورد عن الإمام الصادق (ع) قوله: «إذا رقَّ أحدكم فليَدعُ، فإنّ القلب لا يرقّ حتى يَخلص»[4].

3 ـ بالنظر إلى ما تقدّم، يمكن فهم موقع الدعاء بمعنى التوجّه إلى الله

---

(1) سورة الرعد: الآية 39.

(2) الكليني، **الكافي**، ج2، ص469.

(3) المصدر نفسه، ص473.

(4) المصدر نفسه، ص477.

تعالى وطلب العون منه ومدّ اليد إليه، ويمكن معرفة لماذا كان الدعاء إحدى العبادات المهمّة؛ بل أهمّها بحسب ما ورد في عددٍ من الأخبار الشريفة في هذا المجال. فقد ورد في الآيات الشريفة والأخبار الحثّ على الدعاء ومدّ الأيدي إلى الله، كما ورد أنّ الله يعرف حاجات الإنسان ولا يحتاج إلى الإنسان ليطلعه على حاجاته، ولكنّ الله يحبّ أن يسمع إصرار عبده على الحاجة والمزيد من الطلب وقرع الباب، فمن طرق الباب أوشك أن يفتح له، ومن لجّ ولج.

روى الشيخ الطبرسي في تفسيره مجمع البيان حديثًا عن الإمام الصادق (ع) يقول فيه إن الدعاء هو العبادة الكبرى[1].

ويروي حديثًا آخر عن حنان بن سدير عن أبيه أنّه سأل الإمام محمدًا الباقر (ع):أي العبادة أفضل؟ قال (ع): «ما من شيء أحبُّ إلى اللهِ من أن يُسأل ويُطلب ما عنده. وما مِن أحدٍ أبغض إلى اللهِ عزّ وجلّ ممّن يستكبر عن عبادته ولا يسأل ما عندَه»[2].

4 ـ عندما يدعو الإنسان بهدف طلب الحاجة من الله أو يتوسّل لقضاء حاجته، عليه أن يقول بلسانه أو في سرّه: «اللهم إن كان في ما أطلب مصلحةً فاقضها لي واستجب دعائي، وإلا فأنت أعلم بما يصلح حالي». وذلك حتى لا يسأل الله تعالى شيئًا ليس له فيه صلاح وهو يخالف الحكمة الإلهية. وحيث إنّ الله لا يفعل ما لا حكمة فيه ولا مصلحة، فإنّ هذا التقييد للطلب والدعاء يورث في قلب الإنسان نوعًا من الرضا والاطمئنان النفسي، ويثبّت عقيدة التوحيد في نفسه، والخضوع لإرادة الله تعالى والرضا بما يقضيه كائنًا ما كان.

---

(1) الطبرسي، **مجمع البيان**، ج8، ص451.

(2) المصدر نفسه، ص452.

التتميم الثالث: آفاق التربية الجليلة

نحن نعلم أنّ الأدعية المأثورة سواء كانت مختصرة أم مطوّلة، تحتوي على مضامين تربوية بنّاء للأفراد والمجتمعات. ولا تقتصر هذه الأدعية على مجال دون غيره؛ بل هي متنوّعة المجالات والموضوعات، وهي كثيرة العدد تبلغ إذا أردنا جمعها مجلّدات عدّة. ولعدم إمكان استعراضها جميعًا فإنّنا نكتفي بالإشارة إلى ثلاثة نماذج:

1 ـ نقرأ في «دعاء ختم القرآن» المروي في الصحيفة السجادية عن الإمام زين العابدين (ع):

«واجعلنا ممّن يعتَصِمُ بحبلِه (القرآن) ويأوي من المُتشابهات إلى حرزِ معقلِه ولايلتمسُ الهُدى في غيره»[1].

ومن الأمور الجديرة بالنظر العميق والتأمّل المطوّل في هذه العبارات المختصرة من هذا الدعاء الشريف، هو الإشارة إلى الخلوص في فهم القرآن، والحذر من التعامل مع القرآن على قاعدة الفكر الالتقاطي/ التلفيقي. وهذه العبارات ترشد الداعي الذي يردّدها إلى أنّ الطريق الصحيح العقلي، ومعرفة التوحيد حقّ المعرفة، واكتشاف الطريق الأسلم للسلوك والاستعداد ليوم القيامة والمعاد وقبلهما نيل السعادة في الدنيا، كلّ ذلك منحصر في فهم القرآن دون الاستناد إلى المصادر الخارجية، وعدم تحميل الأفهام والمعارف الأخرى على القرآن ونسبتها إليه. وبعبارة موجزة: الخيار الصحيح والسليم بحسب هذا الدعاء هو عدم اعتماد أي شريك للقرآن في هذه المجالات المشار إليها.

2 ـ ونقرأ في الدعاء الثامن من أدعية الصحيفة السجادية:

«اللهم إني أعوذُ بك من هيجانِ الحرصِ... وإلحاح الشهوة.. وتعاطي

(1) علي بن الحسين (ع)، **الصحيفة السجادية**، الدعاء 42.

الكلفة... وإيثارِ الباطلِ على الحقِّ... وسوء الولاية لِمن تحت أيدينا.. أو أن نعضُدَ ظالمًا أو نَخذُلَ ملهوفًا...».

وهنا أيضًا نلاحظ في هذا النموذج الدعائي الجمع بين الدعاء بالمعنى الفردي المخصص للمناجاة بين العبد وربّه، نلاحظ البعد الاجتماعي التربوي حاضرًا واضحًا، بحيث يمكن القول إنّ هذا الدعاء يرسم للإنسان مجموعة قواعد للعمل الاجتماعي والفردي، وخاصّة في طريقة التعاطي مع الظالمين والمظلومين.

3 ـ وهذا النموذج الثالث والأخير بين هذه النماذج هو نموذج على درجة عالية من الغرابة وإثارة الدهشة. وهو قادرٌ على هزّ وجدان الإنسان وإحياء الضمائر الميتة، وهو دعاءٌ تربوي بكلّ ما لكلمة تربية من معنى:

«اللّهُمَّ أَدْخِلْ عَلى أَهْلِ الْقُبُورِ السُّرُورَ، اَللَّهُمَّ أَغْنِ كلَّ فَقيرٍ، اَللّهُمَّ أَشْبِعْ كلَّ جائعٍ، اَللّهُمَّ اكسُ كلَّ عُرْيانٍ، اَللّهُمَّ اقْضِ دَيْنَ كلِّ مَدينٍ، اَللّهُمَّ فَرِّجْ عَنْ كلِّ مَكرُوبٍ، اَللّهُمَّ رُدَّ كلَّ غريبٍ، اَللّهُمَّ فُكَّ كلَّ أَسيرٍ، اَللّهُمَّ أَصْلِحْ كلَّ فاسِدٍ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمينَ، اَللّهُمَّ اشْفِ كلَّ مَريضٍ، اَللّهُمَّ سُدَّ فَقْرَنا بِغِناك، اَللّهُمَ غَيِّرْ سُوءَ حالِنا بِحُسْنِ حالِك، اَللّهُمَّ اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنا مِنَ الْفَقْرِ، إِنَّك عَلى كلِّ شَيءٍ قَديرٌ».

أدعو القرّاء الكرام إلى إنعام النظر في الآفاق الجليلة التي يفتحها هذا الدعاء، وإلى تلمّس روح الحياة التي يبثّها في الداعي: هذه الآفاق الإنسانية الرحبة، وهذه الأعماق العاطفية التي لا يدرك غورها ولا ينال قعرها، وهذا البحر المحيط الموّاج بالمشاعر الإنسانية المشتركة، وكيف طُرحت هذه الأمور في رواق الخلوة مع الله، وكيف صيغت متلألئة بشعاع التألّه الرباني. فأي معيار أو معايير لبناء الإنسان وإعادة صياغته أفضل من هذه المعايير المطروحة في هذه العبارات من الدعاء؟ وأي أسلوب أرقى من هذا الأسلوب في تربية الإنسان؟!

وفق هذه المدرسة العالية، يتعلّم الناس أن يفكّروا بهذه الطريقة المطروحة في هذه العبارات حتّى في مقام الخلوة مع الله وفي لحظات مناجاته، ويتعلّمون أن لا ينسوا إخوانهم في الدين أو الإنسانية حتّى في أعزّ لحظات الوجد، وأن يرفعوا أيديهم إلى الله بالدعاء لرفع هذه المشكلات عن أبناء نوعهم.

وكلمة «كل» التي تتردّد في هذه الجمل الدعائية هي على درجة عالية من الهادفية في التعليم والتربية الاجتماعية، فالداعي يطلب بها رفع الحاجة عن كلّ الذين ليس عندهم ما يكفيهم للمأكل والملبس والاستقرار في الوطن وعلاج المرض وغير ذلك من الآفات الاقتصادية وغير الاقتصادية التي يطلب الداعي حلّها ورفع آثارها المشؤومة عن سائر الناس.

وبعد البُعد التوحيدي والعبادي في الدعاء، وبعد سائر الأبعاد الإنسانية التي أشرنا إليها حتّى الآن، ثمّة رسالة خطيرة يتضمّنها هذا الدعاء وأمثاله، وهي أنّ الداعي المسلم عليه أن يعي أثناء همسه بهذه الكلمات أنّ العالم الذي نعيش فيه هو عالم الأسباب والمسبّبات، ومن هنا فلا ينبغي أن يكتفي بالدعاء ويترك الباقي على الله والأسباب الغيبية؛ بل عليه أن يؤدّي ما يجب عليه تجاه المذكورين في هذا الدعاء. وبعبارة أخرى: لا ينبغي أن نفهم من هذا الدعاء معناه اللفظي المطابقي فقط بل يهدف أيضًا إلى لفت نظر الداعي إلى الفقر والعري والمرض، ليجعل الإنسان نفسه سببًا من الأسباب التي يعتمدها الله لرفع هذه الحاجات وقضائها.

ويروي كبار المحدّثين (رض) في ما يرتبط بهذا الدعاء عن النبي (ص) وعدًا لمن يقرأ هذا الدعاء في أعقاب الصلوات في شهر رمضان، بمغفرة ذنوبه..

وهكذا يندب هذا الحديث كلّ مؤمن مصلٍّ في شهر رمضان إلى الانشغال بهموم سائر الناس وكأنه ولي من أَولياء الله، وهو مدعوٌّ بمقتضى هذا الحديث إلى التفكير في شؤونهم وشجونهم. وأي أدبٍ أو طريقة تربوية

أسمى وأرقى من أن يجعل الإنسان للآخرين نصيبًا من همّه واهتمامه في اللحظات التي يريد فيها أن يوجّه وجهه إلى الله تعالى ويرفع يديه نحوه.

وهذه الأدعية التأديبية تخرج الإنسان من قيود الأنا وحدودها وتحرّره منها وتدخله إلى عالم الجمع ورحابته، وتربطه بالبشرية كلّها، وتوسّع آفاق روحه، وترفع هذه الروح إلى حيث جلال إشراقة الشمس، وإلى حيث يجالس الأولياء والمقرّبين، ويصل إلى مقام القرب عند مليك مقتدر.

لا بدّ من توجيه الشكر والتقدير للعلماء والكبار والمحدّثين الملتزمين والمؤلفين الناشطين وندعو الله تعالى ان يتفضّل عليهم بالخير والرحمة الواسعة؛ لأنهم بذلوا جهودًا مضنية طوال القرون الماضية إلى يومنا الحاضر وتحمّلوا المشاق والصعاب، وكابدوا العناء والمعاناة في سبيل الحفاظ على التراث الإسلامي القيّم وتعاليم الإسلام الإنسانية والتربوية والتعليمية والتهذيبية التي تتضمّنها الأدعية المأثورة، مع ما لها من الآثار المهمّة على حياتنا المادية والمعنوية. ولولا هذه الجهود، لما وصل إلينا هذا التراث العظيم الخالد.

العبارة الأولى من هذا الدعاء تتعلّق بالأموات الذين ارتحلوا إلى العالم الآخر والتحقوا بالرفيق الأعلى، وقصُرت أيديهم عن العمل واكتساب الثواب في هذه الدنيا، ولم يعد لهم سوى نتائج أعمالهم التي فعلوها وآثار عقائدهم التي اعتقدوها عندما كانوا في دار الدنيا: اَللّٰهُمَّ اَدْخِلْ عَلى اَهْلِ الْقُبُورِ السُّرُورَ... وتهدف هذه الجملة إلى تذكير الداعي بالأموات وفي الوقت عينه تذكير الداعي ولفت نظره إلى مآل نفسه، وأنّه سوف يغمض عينيه عن هذه الدنيا، ويودّع دار الفناء إلى دار البقاء.

كما تلفتنا العبارة الأولى من هذا الدعاء التربوي إلى أنّ المشكلة التي سوف يواجهها الإنسان على المقلب الآخر بعد الحياة الدنيا هي مشكلة الغمّ والهمّ والحزن والندم على ما فات؛ ولذلك نطلب للأموات السرور. وسبب الحزن والغمّ هو الفرص التي يضيعها الإنسان على نفسه في الدنيا.

فالإنسان الجهنّمي يثقل عليه تذكّر تلك الفرص التي كان يمكنه استغلالها واستثمارها في الأمور المجدية له أو لغيره من الناس... وعلى الإنسان أن يهمس ويردّد بينه وبين نفسه: كأنّ مرآة الإسكندر بين يديك، وما علمت فلا تعتب على غيرك. وأتاك دورك في لعبة الشطرنج فلم تلعب فلا تلم سوى نفسك[1].

التتميم الرابع: محدودية الأدب الدعائي في سائر المذاهب والأديان:

أشرنا من قبلُ إلى اشتراك الأدب الدعائي بين الإسلام وبين غيره من الأديان، وقلنا إنّ الأمم السابقة عرفت هذا اللون من الأعمال العبادية؛ ولكن بين ما هو موجود في التقليد الإسلامي وبين سائر التقاليد الدينية وغير الدينية بونٌ شاسعٌ. ففي الإسلام يتاح لمن يرغب من بني البشر الاستفادة من تنوّع الأدعية ويسرها، وعدم تقييدها بزمان ولا مكان على الرغم من ربطها بهما في بعض الأدعية. فكلّ امرئ يمكنه أن يغترف من معين الأدب الدعائي ويترنّم بعذب ألحان الدعاء كيفما ومتى شاء، ويسبح في آفاق الجمال والجلال الإلهي دون أن يقيده قيد أو يحدّه حدّ.

ولم يكن الأمر على هذا النحو في التقاليد الدينية الأخرى سواء الهندية منها أو غيرها من النحل والأديان. وقد أشرنا سابقًا إلى ما يعرف بـ«الطباع التامّ» ولكن هذا النموذج ليس متاحًا لجميع الناس؛ بل مضمونه خاصٌّ ببعض النخب وعلى من يرغب بالاستفادة من مضمون هذا الكتاب وأمثاله اجتياز مراحل شاقّة مضنية، وعليه طي بعض المقدّمات الضرورية مثل: استخراج الأسماء الخاصّة بالموكّلات الأرضية والسماوية من أضلاع «الأوفاق»، وتحويلها إلى «عزائم» وبعد ذلك يبدأ بالقراءة بالاستعانة بـ«طبائع الحروف»

(1) ترجمة لبيتين للشاعر أنوار سهيلي يقول فيهما:

مدتى جام جم به دست تو بود	تو كه نشناختى كسي چه كند؟
برده بـــودى وداوت آمده بود	تو كه بد باختى كسى جه كند؟

وغير ذلك من التعقيدات، كحساب النجوم الطالعة واختيار الوقت المناسب بحسب علم الهيئة والنجوم القديم، واستخدام الأبخرة... ويدّعون أنّ هذه الأساليب كانت تجديهم نفعًا وتحقّق لهم بعض ما يريدون. وأمّا في التقليد الإسلامي فإنّ الدعاء دخل في وادٍ آخر وورد آفاقًا مختلفةً، وتحوّل الدعاء مع الإسلام إلى مدرسة تربوية معرفية مضافًا إلى البعد العبادي المقصود في الدعاء الإسلامي دون شكٍّ. وهذا الأمر يستحقّ أن يبذل الكثير من الجهد للتعرّف إليه ونقله إلى الأجيال، كي يستفيدوا منه في مسيرة صيرورتهم، ويقتبسوا من جذواته جذوة ومن قبساته قبسًا.

التتميم الخامس: الدعاء والسلوك الإلهي

يقول بعض العرفاء: إنّ السلوك هو سير إلى الله تعالى أوّلًا، وهو سير في الله ثانيًا، وهذا السير الثاني لا نهاية له ولا حدّ. ونعم القول هو، ومن المقدّمات الضرورية لهذا السير والسلوك قراءة الأدعية التوحيدية فهي من أفضل المقدّمات لهذا السير والسلوك.

التتميم السادس: فيض الأعماق

رُوي عن النبي الأكرم (ص) أنّه قال: «لولا الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا إلى الملكوت»[1].

نعم! إن وساوس الشياطين والميول والأوهام والرغبات الخيالية هي التي تحول بين الإنسان وبين الصيرورة التكاملية، وعندما تحلّق هذه الأمور وتحول حول قلب الإنسان فإنّها تمنع الملائكة من الهبوط على الإنسان بالأنوار الإلهية التي تكشف له حقيقة نفسه وتفتح عينيه ليرى العالم والكون المحيط به كما هو.

---

(1) علي النمازي، مستدرك سفينة البحار، ج8، ص570.

الوجود من حيث هو أصلٌ، وحتّى وجود الإنسان نفسه، هو البعد الباطني (الملكوت). وهو الشيء الذي أوجده الله بصورة مباشرةٍ، وقبل الدخول إلى عالم الأسباب والمسبّبات، وهذا هو ما يسمّى في القاموس القرآني بـ«الملكوت»، وهذا الملكوت هو ملكوت الأشياء كلّها: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾. ومن هنا كانت مشاهدة ملكوت الأشياء والمعرفة بها والوصول إلى النواة الأصلية والثقل المركزي للأشياء والموجودات، ومن ذلك معرفة الإنسان نفسه من هذه الزاوية ومن هذا البعد، مشاهدةً ومعرفة بالله تعالى: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه». وهذه الرؤية هي التي توصل صاحبها إلى اليقين الكامل، واليقين الكامل هو المكمّل النهائي.

ولأجل هذا الأمر المذكور أعلاه، سعى بعض العارفين بأسرار النفس الإنسانية وحركاتها التكاملية والعارفين بصيروتها التطوّرية، سعَوا منذ أقدم العصور إلى إبعاد كلّ ما لا يناسب هذه الحركة التكاملية، وإلى تطهير القلب (باطن الإنسان) من الشوائب كلّها، للوصول إلى خلوص هذا الباطن وتحريره من كل قيدٍ وتجريده من كلّ حدٍّ.

فقد ورد في التعاليم البوذية أنّ الوصول إلى السعادة (النيرفانا/ الفناء) مرهونٌ بالتجرّد من «التموّجات الذهنية» والخواطر الصارفة. وبحسب التعبير الذي يستخدمه العرفاء المسلمون يتوقّف الوصول إلى الفناء في الله على «نفي الخواطر». وهو المعنى نفسه الذي يعبّر عنه علماء الأخلاق العملية بقولهم: «يجب ترك الخيالات الفاسدة».

وفي «السلوكيات الصناعية» يدرك أهل الخبرة أهمية هذا الأمر ويعبّرون عنه بأشكال مختلفة. فيقولون مثلًا في تعريف اليوغا: «إنّها ممارسة تهدف إلى إخماد التموّجات الذهنية، وإلى تصفية الذهن الإنساني وتحويله إلى لوح أبيض». ويقرّر الخبراء في الفلسفة الهندية، مسيرة التكامل على النحو الآتي: «رفع الجهل وطرد الصور الكاذبة من النفس، واليقطة وانفتاح القلب، والأثر الذي يترتّب على اليقظة هو الفلاح».

وبغضّ النظر عن النقاش في الطرق والآليات المعتمدة في هذه الاتّجاهات والتيارات للوصول إلى الأهداف المبتغاة، فإنّنا نجد شيئًا منها في الإسلام. بل يمكن أن ندّعي أنّ الإسلام اعتمد أفضل السبل والوسائل للوصول إلى الأهداف التكاملية التي ندب الإنسان إليها. وهي طرق وآليات تنسجم مع الفطرة الإلهية والحياة الاجتماعية والالتزامات، فقد أكّد أهمية حضور القلب في الصلاة خصوصًا وفي العبادة عمومًا، وندب إلى الوضوء قبل الصلاة كرمز للتطهير من وساوس الشيطان، وغير ذلك ممّا يمكن الإشارة إليه. ولكنّ الشرط الأساس هو الالتفات إلى معاني الأفعال العبادية وعدم الاكتفاء بظاهرها.

التتميم السابع: الدعاء: مطهّر الأرواح

ظهرت مدارس واتّجاهات اصطناعية في الغرب المعاصر ترتبط في النظرة إلى النفس وعدّها أفعى أو تنينًا يجب ترويضه، وقيل الكثير من الكلام في كيفية محاربة أهواء النفس وكيفية السيطرة عليها، من قبيل: الحديث عن كون الاعتقاد بأهمّية الذات غولًا على السالك أن يقتله ويتخلّص منه. ومن قبيل الاعتقاد بأنّه غولٌ له ثلاثة آلاف رأس. وفي هذا السياق أيضًا يوضع الحديث عن أنّ تهذيب النفس هو تحريرها من القيود الجسمية والتعلّقات الجسدية حتى لا يبقى في النفس شيء من الأنا.

وفي القرآن الكريم عبّر الله تعالى عن هذه النفس التي ربّما هي المقصودة بـ«النفس الأمّارة»، والمقصود من الأمر هنا هو الدعوة إلى الفساد والانقياد أو القياد نحوه. وقد أكّد الإسلام «تربية النفس وتهذيبها»، ولكن لا نجد في الإسلام حديثًا عن حذفها وإلغائها؛ لأنّه وبكلّ بساطة مثل هذا الأمر غير ممكنٍ ولا مطلوبٍ، كما أنّه لا يوصل إلى التوازن والاعتدال. ومشكلة النفس هي الالتفات إلى الذات. وهذا الالتفات لا ينتفي بالالتفات إلى الغير بل ربّما يقوى ويتعزّز. والحلّ الأمثل لهذا الاهتمام والانشغال الذاتي هو الالتفات إلى المطلق والانشغال به عمّا سواه. وهو تعبير آخر عن إخراج النفس من

حدود المقيد وقيوده، إلى رحابة المطلق وسعته. وهذا هو ما يوصل الإنسان إلى الاطمئنان؛ لأنّ كل ما سوى المطلق لا يولّد الاطمئنان.

وعلى الإنسان أن يعدّ نفسه ويؤهّلها للاتّصال بالمطلق من خلال قراءة الأدعية العميقة عمومًا والأدعية التوحيدية على وجه الخصوص، وعلى الأخصّ تلك المخصّصة لبيان صفات الكمال الإلهي. وفي المقابل الالتفات إلى القيود التي تحاصر الإنسان وتقيده.

وفي مثل هذه الأدعية يتذكّر الإنسان قدرة الله تعالى المطلقة، وتلفت نظر الإنسان إلى نقصه وقصوره عن نيل ما يريد لو وكله الله إلى نفسه. ومثل هذا الوعي ذي الطرفين لا شكّ في أنّه يسهم ويدفع الإنسان في مسيرة التكامل والصيرورة. ومثل هذا نشاهده بوضوح في الدعاء الذي يقرأ بعد زيارة الإمام الرضا (ع): «اللهم إني أسألك يا الله الدائمُ في مُلكه...».

التتميم الثامن: الدعاء وآثار قراءته

كلّ عملٍ يؤدّيه الإنسان تترتّب عليه آثار ونتائج، وقراءة الدعاء هي عملٌ وبالتالي لا داعي لاستثنائها من هذه القاعدة. وهذا المعنى تثبته الأبحاث العلمية النظرية (الفلسفة)؛ وذلك لأنّ كلّ حركة في عالم المادّة لها أثرٌ ونتيجة تترتّب عليها، والقراءة كما هو واضحٌ حركة في عالم المادّة، لها آثارٌ كما لها أنواعٌ، وتختلف آثارها باختلاف أنواعها.

ومن جهة أخرى، نعلم أن الجمل مؤلّفة من كلمات، والكلمات مؤلّفة من حروف، والحروف لها جهات أربع هي: الصور (1)، والأعداد (2)، والمعاني الوضعية (3)، والحقائق العينية (4). ومن حيث الجهة الرابعة لها بعدٌ روحاني أي قدرة تأثير، وتُعلم هذه القدرة على التأثير بواسطة علم خصائص الحروف.

ومن هنا، نرى أنّ آيات القرآن أو الأدعية المأثورة بما هي مركّبة من جمل وكلمات وحروف، تترتّب عليها آثار عظيمة. وقد أشار بعض الفلاسفة من

أمثال شيخ الإشراق السهروردي في كتابه الألواح العمادية، على طريقة الرمز والإلماح، إلى آثار بعض الأعمال ونتائجها، ونحن نرى أنّ بعض الآثار تترتّب على ما ذكرنا من الآيات والأدعية بنحو أتمّ وأكمل. ولأجل هذا، لا ينبغي الغفلة عن الآثار المترتّبة على القراءة، وإنّي كنت أشير إلى هذا الأمر على نحو الإيجاز غير قاصدٍ إلى الدخول في تفاصيل البحث، فإنّ أهل الخبرة في هذه المجالات يدركون عمق ما أشير إليه. وما أشرت إليه لتوضيحه وشرحه بل لحرصي على عدم العبور عنه دون الإشارة إليه.

على أنّه لا ينبغي قراءة القرآن أو الأدعية بغية الحصول على هذه الأهداف؛ وذلك لأنّ القراءة عملٌ عبادي. والعمل العبادي ينبغي أن يؤتى به بقصد القربة وطلب الثواب من الله تعالى. ولا مانع من أن يكون طلب الأمور الأخرى من قبيل الداعي إلى النية الصحيحة كما هو معروف في الفقه. فصلاة الاستسقاء مثلًا ينبغي أن يؤتى بها قربة إلى الله تعالى، وإن كان الداعي إلى هذا التقرّب هو الاستسقاء وطلب المطر.

التتميم التاسع: البعد التربوي في الزيارات

يحسن بنا التذكير، ولو على نحو الإشارة، بخصائص الزيارات المأثورة والآثار المعرفية والمعارفية، والتربوية والاعتقادية والتكاملية المترتّبة عليها. فكما إنّ الأدعية لها آثارٌ ونتائج تترتّب عليها كذلك الزيارات المعتبرة لها مثل هذه الآثار والنتائج من ذلك مثلًا «زيارة الجامعة». وهذه الزيارات بما تتضمّنه وتشتمل عليه من رسائل ومعارف تترك أثرها البنائي على الفرد والمجتمع. وحبّذا لو أنّنا لا نكتفي بقراءة الزيارة للأهداف المعروفة بل نضمّ إليها الاستفادة من أبعادها التعليمية والتربوية.

التتميم العاشر: المعارف الدعائية

أردت أن أقدّم 300 موضوعٍ من المواضيع التربوية والتكاملية والبنائية؛

الفردية والاجتماعية التي يمكن استخراجها من الأدعية، ولكنّ الفرصة لم تسمح بذلك. وعلى قاعدة ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه، أكتفي بالإشارة السريعة إلى أربعين موضوعًا، من هذه الموضوعات، أعرضها في المسرد الآتي:

ا ـ المعرفة العميقة بالتوحيد، ومراحل معرفة الله تعالى.

(1)ـ الرحمة الإلهية الواسعة.

(2)ـ الحكمة الكاملة الإلهية.

(3)ـ القدرة الإلهية الشاملة.

(4)ـ لطائف الأسرار الإلهية، في التصرّفات في الموجودات.

(5)ـ تسبيح الكائنات وسرورها بالجمال الإلهي.

(6)ـ خضوع الكائنات في مقابل الجلال الإلهي.

(7)ـ الألطاف الإلهية الخاصّة ومراحل المغفرة.

(8)ـ ألطاف الله الخاصّة بالعباد ومراحل السترعليهم.

(9)ـ إمكان تغيير المصير المحتوم من أجل الوصول إلى السعادة والفلاح.

(10)ـ الإقبال على الله وساحة كبريائه بلهفة.

(11)ـ الشوق إلى الحضور بين يدي الله والاغتمام للبعد عنه.

(12)ـ التوكل على الله تعالى والثقة به وتفويض الأمور إليه.

(13)ـ آثار العبودية وعظمة مقام العبد.

(14)ـ آثار الغفلة عن الله تعالى (الآثار الدنيوية).

(15)ـ آثار الغفلة عن الله تعالى (الآثار الأخروية).

(16)ـ وضع قانون السببية بين الأسباب والمسبّبات في الحياة والكون.

(17)ـ توقّف كلّ شيء على إرادته تعالى ومشيئته.

(18)ـ أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

(19)ـ أسرار طلب القرب والمعرفة.

(20)ـ إفاضة التوفيق للشكر وسائر الأعمال الصالحة (ومن هنا على الإنسان أن يكون ممتنًّا لا صاحب منّة).

2ـ معرفة منزلة الملائكة المقرّبين، والارتباط الروحي بهم.

3ـ معرفة مقام الأنبياء (ع) وأوصيائهم.

4ـ معرفة حقيقة العلاقة بين الأنبياء (ع) وربّهم:

(1)ـ الأبعاد التوحيدية ـ العبادية (الإخلاص التامّ وبذل الجهود المضنية في سبيل فلاح سائر الناس).

(2)ـ الأبعاد التوحيدية ـ التبليغية (التأييد والإعجاز).

5ـ معرفة مقام النبي محمد (ص) وأبعاد عظمته.

6ـ معرفة عظمة القرآن الكريم، وإدراك أهمية خلوص فهمه، والحذر من التلفيق والالتقاط فيه فهمه وتفسيره.

7ـ معرفة مقام المعصومين (ع)، وأنّهم من التجلّيات المظهرية التامّة للأسماء الإلهية (في العلم والقدرة).

8ـ معرفة العلاقة العامّة بين الإنسان والكائنات وبالعكس.

9ـ معرفة بعض الأسرار الإلهية في تكوين الموجودات (السماوات والبحار والجبال و...).

10ـ معرفة عيوب النفس وطرق نفوذ الشيطان إلى القلب وسبل الحيلولة دون ذلك.

11ـ معرفة أهمّية العُمر وأهمية الاستفادة من فرصة الحياة الدنيا.

12ـ معرفة أحوال الأموات:

(1)ـ أهل الثواب والنعيم والرضوان.

(2)ـ أهل الشقاء والعقاب والحرمان.

13ـ معرفة الأوقات الخاصة لطلب الكمال والحاجات.

14ـ معرفة آثار العبادة المتنوعة (بالصورة التي سوف نعرضها في ما يأتي).

15ـ معرفة آثار الآثام والمعاصي:

(1) الآثار الدنيوية:

ـ الآثار الفردية الجسدية.

ـ الآثار الفردية الروحية.

ـ الآثار الأسرية.

ـ الآثار على الأجيال الآتية.

ـ الآثار الاجتماعية العامة.

ـ الآثار الطبيعية (الآثار السلبية على الطبيعة والبيئة).

(2)ـ الآثار الأخروية:

ـ الآثار البرزخية.

ـ الآثار في القيامة الكبرى.

16ـ معرفة الفضائل والمكارم.

17ـ معرفة السيئات والرذائل.

18ـ معرفة العظمة الحقيقية للمجتمع، والوصول إلى العزّ الفردي والاجتماعي.

19ـ معرفة المواقف الصحيحة في المحطّات الاجتماعية والسياسية المختلفة.

20ـ معرفة دور الإنسان وما يجب عليه فعله في أيام الله الكبرى، وخاصّة في مواقع الجهاد والدفاع.

21ـ معرفة مقام الشهداء السامي.

22ـ معرفة عظمة وفلسفة أن يكون الإنسان إلى جانب الحقّ والعدل، والثبات في هذه الجهة والإنفاق في سبيلها.

23ـ معرفة الفلسفة الراقية للتكافل الاجتماعي، والتعاون بين الناس في الميادين الاقتصادية.

24ـ معرفة الفلسفة الراقية للتكافل الاجتماعي والتعاون بين الناس في الميادين المعنوية.

25ـ معرفة الحالة الاقتصادية الصحيحة التي يقبلها الله تعالى.

26ـ معرفة ما للفقراء والمساكين من حقوق في أموال غيرهم من الناس.

27ـ معرفة واجب الإنسان تجاه غيره من الناس.

28ـ معرفة واجب الإنسان تجاه أبويه.

29ـ معرفة واجب الإنسان تجاه أولاده.

30ـ معرفة واجب الإنسان تجاه أقاربه وأساتذته وذوي الحقوق عليه.

31ـ معرفة واجب الإنسان في مجال الدفاع عن المظلومين والمضطهدين.

32ـ معرفة واجب الإنسان تجاه الضعفاء والمساكين.

33ـ معرفة واجب الإنسان تجاه الأقوياء والمتغطرسين.

34ـ المعرفة بوجوب إصلاح العلاقات بين الناس، والفلسفة التوحيدية الكامنة وراء هذه العلاقات .

35ـ معرفة الإنسان واجباته تجاه نفسه وغيره في ما يرتبط بالصحة.

36ـ معرفة الإنسان بوجوب الالتفات إلى الأعمال وآثارها سواء كانت أعمال جوانح أم جوارح.

37ـ معرفة وجوب أن يكون الإنسان مفيدًا في المجتمع، وتعزيز الضمير.

38ـ معرفة وجوب الاستغفار، والإنابة إلى الله والتوبة إليه، والعزم على ترك المعصية وعدم العودة إليها، والعزم على الصدق ولزوم الصواب والعزّة.

39ـ معرفة الأبعاد الواسعة والرحبة للوجود الإنساني.

40ـ معرفة الأبعاد الرحبة للصيرورة المطلوبة والمناسبة للإنسان.

تذكير (1): الأدعية المعارفية والأدعية العلاجية

يعرف المطّلعون على عالم الأدعية، وبخاصّة أولئك الذين جلسوا بين أيدي الأساتذة الخبراء في هذا الميدان، يعرف هؤلاء أنّ ثمّة أدعية «معارفية وتربوية» وأدعية «علاجية وتعويذية وعزائمية»، وبين الصنفين اختلاف وتمايز، مع الالتفات إلى أنّ أدعية الصنف الثاني ليست كثيرةً. ثمّ إنّ بعضها له صلة بأفراد بعينهم، ونقلها العلماء في كتبهم العامّة، ومن هنا فربّما لا يكون لها أثرٌ مهمٌّ في غير من صدرت له ولأجله. ولعلّ بعضها ناقصٌ أو حُذِفت منه بعض الأسماء وبالتالي فقدَ خاصيته التأثيرية.

فالأدعية العلاجية وأدعية الصنف الثاني المذكور أعلاه، تأثيرها مشروطٌ بأمور عدّة منها صحّة السنة والنسبة إلى المعصوم، ومنها كونها كاملةً غير ناقصة، مع مراعاة أوقاتها وشروط قراءتها والأعداد الخاصّة التي ذكرت لمرّات تكرارها أو عدد بعض الكلمات الواردة فيها. ومن هنا فإنّ قراءتها ليست بالأمر المتاح لجميع الناس، ولكن وعلى الرغم من هذا كلّه، فإنّ ثمّة من جرّب بعض آثارها حتى مع عدم اكتمال الشرائط.

وإنّما أردنا من هذه الإشارة التلميح إلى الفرق بين الصنفين أو النوعين، فإنّه وإن كان كلٌّ منهما دعاءً ويصدق عليه اسم الدعاء، فإنّ كلًّا منهما يمتاز عن الآخر بامتياز خاصٍّ. ومحلّ كلامنا في هذا القسم من هذا الكتاب هو النوع أو الصنف الأوّل دون الثاني. وبناء عليه فإذا عثر أحدٌ من الناس على دعاء علاجي وقرأه ولم ينل من قراءته الهدف المطلوب، فلا ينبغي له إساءة الظنّ بمفهوم الدعاء كلّه، والانصراف عن قراءة الأدعية التربوية والتعليمية التي نحن بصدد الحديث عنها. كما لا ينبغي أن يشكّ في تأثير الصنف الثاني من الأدعية. وذلك أنّه إذا صحّ السند وصحّت النسخة فربّ دعاء مشروط بشروط لا يعرفها القارئ أو يعرفها ولكنه لم يؤدّها حقّها أو لم يأتِ بها أصلًا. ولأجل هذا فإنّنا نربأ بطلّاب الكمال وناشدي الفيوضات الرحمانية والمعرفية أن يحرموا أنفسهم من فيض مدرسة الدعاء وآثاره المعنوية والروحية والتربوية، من أجل شبهة تُلقى من هذا أو من أجل عدم حصول المرء على ما يريد من قراءة وصفة علاجية دعائية. ثمّ إن هذه الشبهات مهما كان مصدرها ومنشؤها خاصّة بالصنف الثاني ولا تعمّ آثارها ونتائجها الصنف الأوّل. وهنا كلامٌ كثيرٌ يمكن أن يقال نتركه إلى فرصة أخرى.

تذكير (2): بحوث وإشارات في الدعاء

1ـ في كتاب الأصول من الكافي[1] روايات عدّة مهمّة ترتبط بالدعاء وأهميته وخصائصه وآثاره، ويروي الكليني في هذا الباب عددًا من الأدعية المهمّة.

2ـ في كتاب سفينة البحار أحاديث مفيدة تحت عنوان «الدعاء».

3ـ كتب ابن سينا شرحًا مطوّلًا ورسالة في الردّ على سؤال من الشيخ

(1) الكليني، **الكافي**، ج2، ص465ـ595.

سعيد أبي الخير، وطال هذا الجواب حتّى صار رسالة بمصطلح أهل ذلك الزمان، عنونها بعنوان: «كتاب في معنى الزيارة وكيفية تأثيرها»[1]. كما كتب عن الدعاء في قسم الإلهيات من كتاب الشفاء[2].

4- عرض العالم الجامع للعلوم الظاهرة والباطنة، التفكيكي الكبير للمعارف (المنتسب إلى مدرسة التفكيك)، والمتألّه القرآني، حضرة الشيخ مجتبى القزويني الخراساني (1318-1386 للهجرة)، عرض في المجلّد الأوّل من كتابه «بيان الفرقان» وهو الكتاب الذي خصّصه للتوحيد القرآني وشرح الفرق بينه وبين التوحيد العرفاني، مجموعة من القضايا المرتبطة بالتوحيد ومنها قضية الدعاء.

5- كتبت في كتابي «حماسه غدير» (ملحمة الغدير) بعض الأمور المرتبطة بالدعاء في خمسة بنود[3].

6- كما ذكرنا في كتاب «امام در عينيت جامعه» (الإمام في الواقع الاجتماعي)، بضعة مسائل تربوية وبنّاءة للفرد والمجتمع استوحيناها من الصحيفة السجادية[4]. وهذا الكتاب سيرة تحليلية لحياة الأئمّة (ع) بدءًا من حياة الإمام علي (ع) إلى حياة الإمام العسكري وبداية عصر الغيبة. وقد قسّمنا عهد الإمامة إلى ثماني مراحل.

المرحلة الرابعة التى تتميّز ببعض الأمور، هي مرحلة الإمام زين العابدين (ع). وقد أدّى هذا الإمام الهمام واجبات الإمامة في حفظ الدين في ستّة مواضع، كلّها تصبّ في خدمة حفظ القرآن وتعاليم أهل البيت (ع)، وأوّل هذه المواضع نشر الرسائل والتعاليم المعارفية، والتربوية، والاجتماعية، والقانونية، والاقتصادية، والثقافية، والدفاعية، للإسلام. وقد دوّنّا بعض

---

(1) ابن سينا، **رسائل ابن سينا**، ج3، الرسالة الثالثة.

(2) ابن سينا، **الإلهيّات**، ص439.

(3) محمد رضا حكيمي، **حماسه غدير**، ص299-302.

(4) محمد رضا حكيمي، **امام در عينيّت جامعه**، ص23-43.

الملاحظات المرتبطة بهذه الأمور في بحث لنا حول الصحيفة السجّادية.

7ـ أوردنا في كتابنا الموسوم بـ«خورشيد مغرب زمين»، بعض الإشارات المرتبطة بالدعاء[1].

8ـ نؤجّل المزيد من التحليل لمفهوم الدعاء والغوص في أعماق بحره الموّاج الذي لا يدرك قعره إلى فرصةٍ أخرى لعل الله يقيضها لنا، وما نقوله ونتمنّاه في ما يرتبط بالدعاء يمكن تعميمه على الزيارات، وخاصّة لمعالجة الآثار والنتائج المترتّبة على الدعاء في مجال التربية والصيرورة الإنسانية، والآفاق التي يحمل هذين الجناحين الإنسان إليها.

---

(1) انظر: محمد رضا حكيمي، **خورشيد مغرب زمين**، ص177ـ179.

الفصل الخامس

السياسة العامة للإسلام: اتحاد الجماهير الإسلامية

تمهيد

لو اتجه العالم نحو سياسة القطب الواحد وكان هذاا لقطب هو «محور العدل»، فإنّ هذا المحور وهذا القطب يستحقّ النصرة ولا يجوز معارضته؛ لأنّ معارضة العدالة ظلمٌ والظلم حرام في الشريعة الإسلامية، حتّى لو كان ذلك في حدود الرضا به. وإن كان ذلك القطب هو محور الظلم، فإنّه لا يستحقّ التأييد بل لا يجوز تأييده، حتى على المستوى العاطفي والرضا القلبي. وعلى جمهور الأمّة الإسلامية معارضته؛ لأنّ تأييد الظلم ظلمٌ والظلم حرامٌ في الشريعة الإسلامية. وفي هذه الظروف التي نعيشها اليوم القطب الأوحد الذي يسعى إلى السيطرة على العالم هو القطب الظالم. وهو محور الاستكبار والاستعمار. يجب أن يكون أهل العدل في محور واحد وأن يستقطبوا إلى جهة واحدة، ليقودوا الناس والمجتمعات نحو الكمال والسعادة.

وعالم الإستكبار والرأسمالية هو عالم الظلم والجور، واقتدار هذا العالم وقبضه على السلطة يعني وصول الظلم وأهله إلى هذه السلطة. وصحيح ما قيل: «إنّ ذات النظام الرأسمالي المعاصر، نظام توسّعي، وفساد، وحرب، وإراقة دماء، وانتهاك للحقوق الفردية والاجتماعية».

وبحسب الوصف القرآني لهذا النظام هو نظام ترف ومترفين وإسراف وتكاثر... وأهل هذه النظام يسوقون العالم كلّه والناس نحو الفساد، وهم يفسدون ولا يصلحون، ليس لهم أهلية الإصلاح أبدًا: ﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾[1].

أدخلت قبل 20 سنة إلى القاموس السياسي الإسلامي مصطلح «اتحاد الجماهير الإسلامية». وهو مصطلح حيوي لحياة الشعوب الإسلامية المعاصرة. وقد تطرّقت إلى هذا الموضوع في كتاب «شرف الدين». وهنا وبمناسبة الحديث عن العدل والعدالة في هذا الكتاب أودّ لفت نظر القرّاء الكرام إلى هذا الأمر مجدّدًا، وأودّ تقديمه وعرضه على الأمّة الإسلامية أمّة القرآن والقبلة. كما أودّ أن ألفت إلى هذا المفهوم نظر الذين تؤرّقهم آلام المتألّمين، والذين يفكّرون في سبل الخلاص لجميع البشرية وتحريرها من نير الظلم والفساد.

أعتقد أنّ الحلّ يكمن في ولادة قوّة معارضة تقف في وجه الهيمنة الرأسماليّة أهل الثروة، وتجّار السلاح وأصحاب مصانعه في العالم المعاصر؛ لتحول هذه القوّة المعارضة بين هؤلاء وبين ظلمهم الذي يمارسونه ويريدون نشره. وهذه السلطة المعارضة والرادعة على المسلمين تأسيسها والسعي لإنشائها، ولكن كيف؟ والجواب هو: عن طريق اتّحاد وثيق وواسع الانتشار، يتشكّل من جميع البلدان الإسلامية، ويدخل فيه مسلمو العالم حتّى لو كانوا يعيشون في غير البلاد الإسلامية، والمطلوب هو اتّحاد الجميع تحت راية «اتحاد الجماهير الإسلامية»؛ بل إنّ المسلمين هم الذين يقدرون على الاتّحاد والوقوف في وجه الظلم المعاصر المنتشر. وإذا لم يتسنَّ جمع البلاد الإسلامية كلّها تحت راية هذا الاتّحاد فإنّه يكفي البدء بعشرة بلدان إسلامية لينطلق المشروع ويبدأ.

---

(1) سورة الشعراء: الآية 152.

الأمّة الواحدة

القرآن الكريم هو الداعي الأوّل إلى تشكيل «الأمة الواحدة»، وهو المنادي الأوّل بوحدة الصفّ الإسلامي:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1].

ويقول تعالى في موضع آخر:

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[2].

يبين الله تعالى في هاتين الآيتين الشريفتين، الدين الإسلامي وبرامجه لهداية الأمّة الإسلامية، ويعدّه برنامجًا واحدًا، ويدعو جميع المؤمنين إلى العمل به بوصفهم أمّة واحدة، ويدعوهم إلى عبادة إلهٍ واحدٍ وتطبيق العدالة والتقوى.

وهكذا يتبين أنّ القرآن الكريم يدعو إلى أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعًا واحدًا. ويدعو المسلمين بما هم أمّةٌ واحدة إلى عبادة الله وحده، وإلى إقامة الصلاة، وإلى التزام حدود التقوى، وأن يحملوا لواء العدل والقسط وينشروه بين الناس. ولذلك يجب على المسلمين أن يهتمّوا بهذا الشعار القرآني (الأمّة الواحدة)، ويدركوا مدى عظمته، ويعملوا على تنظيم خلافاتهم، وفضّ نزاعاتهم التي تجعلهم طرائق قددًا. والأساس والقاعدة التي يحسن أن تُبنى عليها الوحدة الإسلامية هي قاعدة العدل والعدالة. ومن أولى الخطوات التي خطاها رسول الله (ص) عندما دخل إلى المدينة بعد هجرته من مكّة إليها، أن عمل على توحيد الأوس والخزرج، وجعل منهما ومن سائر سكّان المدينة «أمّة واحدةً من دون الناس». كما عمل في فترة لاحقةٍ على المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين عندما وفدوا إلى المدينة وزاد عددهم فيها.

---

(1) سورة الأنبياء: الآية 91.

(2) سورة المؤمنون: الآية 52.

وبناء على ما تقدّم لا ينبغي أن يخفى على ذي مسكة أنّ تأسيس الاتّحاد الكبير الإسلامي، هو من أهم المهمّات التي ينبغي أن يضطلع بها المسلمون في البلدان الإسلامية؛ بل جميع المسلمين حتّى لو كانوا يعيشون خارج البلاد الإسلامية. ومن الواضح أيضًا أنّ كلّ حركةٍ تؤدي إلى التفرقة بين المسلمين وتشتّت صفوفهم هي حركة يستفيد منها الاستعمار بالدرجة الأولى، وتنتهي بإدخال الضرر والخسران على المسلمين في هذا العصر، وينبغي عدّ فاعلها والداعي إليها خادمًا للاستعمار وعميلًا له.

ولقد كان الاهتمام بوحدة الصفّ الإسلامي هدفًا وغاية يتغياها كلّ المخلصين الواعين في الأمّة منذ بدء الاختلاف حول مسألة الخلافة إلى عصرنا هذا. ولقد كان الهمّ الأساس لأمير المؤمنين علي (ع) عدم توسعة شقّة النزاع حول الخلافة، ومحاولة إبطال أثره، بل يمكن القول إنّ الإمام عليًّا (ع) كان أتمّ تجلٍّ لمثل هذا الحرص على الوحدة. وذلك أنّ هذا الإمام والإنسان العظيم، والحارس اليقظ للإسلام، جميع منذ البداية بين تنوير الرأي العامّ حول مسألة الخلافة ووصاية النبي (ص)، واستشهدا مرارًا بحديث الغدير وغيره من الأدلّة التي استند إليها لإثبات حقّه بالخلافة، وفي الوقت نفسه صبر على ما يراه حقًّا له؛ بل تعاون في مواضع عدّة مع الخلافة وأعلن حرصه على وحدة المسلمين وعلى دولة الإسلام حتى لو لم يكن هو على رأسها[1]. ولم يكن يبتغي من وراء ذلك إلا رضا الله تعالى.

وتبعه على هذا النهج خلفاؤه الأئمّة الأطهار (ع) الذين هم أعلام الهدى ومصابيح الدجى، ونهوا عن كلّ ما يمكن أن يؤدّي إلى الفرقة بين المسلمين والإخلال باتّحادهم[2]. وسار على نهج هؤلاء الأعلام من أتى بعدهم من العلماء الواعين، وأظهروا حرصهم على وحدة المسلمين وتجنّبوا شقّ عصا المسلمين، بل سعوا إلى إزالة الشحناء وإعادة وصل ما انقطع. وليس ما

---

(1) علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، قسم الكتب، الكتاب 78.

(2) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج53، ص115.

نذكره مجرّد دعاوى وتمنّيات بل هو حقائق تاريخية لها شواهد وأدلّة من الوقائع المدوّنة في كتب التاريخ الإسلامي. وعلى الرغم من أهمية الماضي، فإنّ الأهمّ هو الحاضر المعيش، فالإسلام اليوم مستهدفٌ بدرجة عالية، وتشنّ عليه حروب صليبية وشبه صليبية، ويواجه المسلمون في هذه الأيام المخاطر والتحدّيات أينما كانوا. والعالم اليوم عمومًا في حالة خطر وهو مشرفٌ على السقوط الكبير، والبشرية في حالة انحطاط لم يشهد التاريخ مثيلًا لها، والقيم في حالة احتضار وتردٍّ.

ومن أخطر ما يواجهه العالم عمومًا والإسلام على وجه التحديد هو ما أعلنت عنه الإدارة الأمريكية منذ سنوات تحت عنوان النظام العالمي الجديد، وإن نجحوا في فرض نظامهم هذا فإنّ ذلك يعني سقوط العالم كلّه في يد الرأسمالية المتوحّشة ذات الطبيعة المعلومة والسلوك الواضح. وهذا يعني تسلّط الأيادي الشيطانية وتحكّمها بمفاصل العالم، وهو يعني أيضًا انحطاط القيم وانحدار البشرية إلى الحضيض، ولن يحصل ذلك بإذن الله.

ألا يجب على المؤمنين الموحّدين أي فعلٍ تجاه تسلّط المستكبرين الذين لا يعرفون الله ولا يرقبون في الناس إلًّا ولا ذمَّة؟ وعلى من يقع واجب مواجهة هذا السقوط والانحطاط والموت المعنوي وربّما المادي الذي يترتّب على هاتيك الفجائع؟ إنّها من دون شكٍّ مهمّة الإسلام، وهو الدين الخالد الذي يمكنه أن يهزم هذا الاستبداد، ويواجه هذا الظلم، وتلك الأهواء، والجنايات والخيانات، ومحاولات الهيمنة على العالم، شرط أن يقف المسلمون صفًّا واحدًا، ويشبكوا يدًا بيد.

ليست أميركا، بما هي دولة استعمارية وليس الشعب الأميركي، عدوَّ الوحيد الإسلام والمسلمين فحسب؛ بل هي قوّة استعمارية تطلب السيطرة على العالم ونهب ثرواته، وانتهاك حقوق الإنسان، والحارس الأمين لرذيلة التمييز العنصري، والقاتل المباشر وغير المباشر لعدد كبير من الأبرياء المظلومين، والقاضي على الفضائل والقيم الإنسانية. والعالم الذي تموت

فيه القيم المقدّسة، سوف تتحوّل حياة الإنسان فيه إلى حياة حيوانية، ومع هذا المستوى المنحطّ من الحياة يحرم من المساواة مع سائر أبناء جنسه، فيستولي المستعمرون على الرفاه وأسبابه وعلى الحرية والتقدّم، ولا ينال سائر الناس سوى الحرمان والتخلّف.

ولكن عندما يتحقّق الاتحاد الإسلامي الذي يرفع الحدود بين الدول الإسلامية، وتتحوّل البلاد الإسلامية إلى بلدٍ واحدٍ، وبما أنّ مثل هذا الحلم غير قابل للتحقيق في العالم المعاصر، فعلى المسلمين الواعين بشخصياتهم التي تأبى الذلّ والضيم، أن يفكّروا في كيفية تحقيق هذا الحلم غير المستحيل على المدى البعيد. وعليهم أن يدرسوا السبل التي تؤدّي إليه، وأن يدفعوا عامّة المسلمين نحو السعي إلى تحقيقه، وينشروا فكرته في عقول الناس وأذهانهم. وعلى هؤلاء الواعين أن يرفعوا هذا الشعار ليخرجوا الأمّة الإسلامية من الحالة التي تعيشها، وأن يخلّصوها من أسر التخلّف الراهن. كما عليهم أن يقدّموا هذه الهدية إلى عامّة أهل القبلة، وأن يحرّروا ثروات الأمّة من أيدي الأجانب والغرباء وعملائهم، وأن يدافعوا عن العدل والتوحيد، ويصونوا هذين المبدأين في الحصون الآتية:

- الأصالة الإسلامية.
- الرسالة الإسلامية.
- الوحدة الإسلامية.
- الاستقلال الإسلامي.
- الدفاع الإسلامي.

ومن الواضح أنّ فكرة تأسيس اتّحاد إسلامي من الدول الإسلامية كلّه أمرٌ بعيد المنال حاليًّا وغير عملي. والطرح العملي هو الاكتفاء بالحدّ الأدنى من الدول الإسلامية التي يمكن أن تتّحد في ما بينها وتشكّل نواة هذا الاتّحاد.

وهنا أذكر المحاور التي لا بدّ من أن تستند إليها فكرة اتّحاد الجماهير

الإسلامية، وأكتفي بذكر بعض العناوين على نحو الاختصار، وأترك تفصيلها إلى فرصةٍ أخرى لعل الله يمنّ بها. وأضع هذه المحاور بين أيدي العلماء والمفكّرين لعلّهم يسهمون في تطوير الفكرة وتوسعتها والدفاع عنها، وأسأل الله أن يوفّق سعاة الخير في هذا المجال.

محاور الحركة والعمل

1ـ طرد الرجعيين والعلماء الجاهلين، من الساحات الأصيلة للحياة الإسلامية.

2ـ إسقاط الأنظمة والحكومات التي حكّمها الاستعمار في رقاب المسلمين.

3ـ تأسيس الحكومات الإسلامية، والنظم العاملة بالعدل في جميع المجالات.

4ـ تأسيس المجتمعات الإسلامية؛ أي المجتمعات القائمة بالقسط، في جميع المجالات وبين جميع الناس؛ لتتحقّق العدالة القرآنية[1].

5ـ القضاء على التبعية الاقتصادية والثقافية.

6ـ بثّ الأمل في نفوس الأجيال الشابّة بإحياء الدين وتطبيق أحكامه بصورة صادقة ودقيقة.

7ـ إحياء «الكرامة الإنسانية».

8ـ إحياء «المساواة الإسلامية».

---

(1) مع التأكيد الصريح على اتّحاد المسلمين، مع بذل الجهود المتاحة لدرس الحاجات التي تؤدّي إلى هذه الوحدة، والتميز بين الوحدة الدينيّة والوحدة السياسيّة. مع السعي إلى تأكيد إمكانية قيام الوحدة الإسلاميّة. وإذا لم يكن ذلك بالاستناد إلى الأمور الإيجابيّة فليكن ذلك بالنظر إلى الأمور السلبيّة، فالمجازر التي تصيب المسلمين وتدعوهم إلى الاتّحاد ليست قليلة.

9ـ إحياء مبدإ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وبخاصة بين المسؤولين والقادة وأصحاب النفوذ السياسي والاقتصادي في المجتمع.

10ـ إقامة العلاقات الاقتصادية الوطيدة بين الدول الإسلامية (تأسيس سوق إسلامية مشتركة)، من أجل تبادل الخبرات بين البلدان الإسلامية واستعانة بعضها ببعضها الآخر لحلّ المشكلات التي تواجهها، من أجل التنمية ورفع مؤشّرات التخلّف.

11ـ الاهتمام بالثورة الثقافية السليمة ونشر الروح الثورية، وتوفير الظروف اللازمة للتنمية الاجتماعية والسياسية للجميع.

12ـ توفير الحرية في شتى المجالات والخضوع للنقّاد والانتقادات البنّاءة.

13ـ بثّ روح التجديد والمعرفة بالعصر ومتطلّباته في الحوزات العلمية.

14ـ تطوير الجامعات والاهتمام بشؤون الجامعيّين والدراسات الأكاديمية في الدول الإسلامية.

15ـ إعادة الحياة من جديد إلى العلوم الطبيعية في الدول الإسلامية.

16ـ تطوير التكنولوجيا في الدول الإسلامية.

17ـ تطوير الزراعة في الدول الإسلامية.

18ـ تبادل المعلومات والأفكار والآراء بين المفكرين الإسلاميين.

19ـ تعرّف كلّ الشعوب والقوميات الإسلامية على تاريخ بعضها وثقافتها وتراثها الإنساني والسياسي.

20ـ تدوين دستور واحد ومشترك.

21ـ الاهتمام الجادّ بالنوابغ والعباقرة والنخب الفكرية.

22ـ ترويج ثقافة الخبرة والتخصّص في الدول الإسلامية.

23ـ اكتشاف المصادر الطبيعية والثروات الموجودة في الدول الإسلامية.

24ـ نشر المذهب التربوي الإسلامي في شتّى المجالات.

25ـ نشر المذهب الإنساني الاجتماعي للإسلام.

26ـ نشر المذهب الإسلامي في القضاء.

27ـ نشر أفكار المذهب الاقتصادي الإسلامي.

28ـ نشر المذهب السياسي الإسلامي.

29ـ التعرّف إلى أبعاد المعارف القرآنية، والتأكيد على البعد التطبيقي في القرآن، وعدم الاكتفاء بالتعامل معه على أنّه كتاب نظري.

30ـ تخليد أيام الله في تاريخ المسلمين؛ من أجل مواصلة النهضة الإسلامية العالمية.

31ـ ضرورة الالتزام بالأخلاق والشيم الإنسانيّة كالتواضع من جانب المسؤولين وأصحاب القرارات وأقاربهم.

32ـ ضرورة الزهد في الدنيا وعدم التعلّق بزخارفها الفانية في حياة العلماء الدينيّين ورجال الإسلام وأقربائهم وحُكّام الإسلام وأقربائهم وأفراد عائلتهم في كافة الأمكنة والأزمنة.

33ـ القضاء على الأنانية وحبّ السلطة.

34ـ القضاء على روحية الاستسلام والخضوع للآخرين.

35ـ إحياء فريضة الصلاة من خلال تطبيق العدالة الاجتماعية، وليس بأي وسيلة أخرى؛ لأنّ غير ذلك لا ينسجم مع تعاليم الأنبياء (ع)، وليس له أثرٌ فعّالٌ.

36ـ إصلاح الإدارة والنظام الإداري، وتربية الموظّفين الصالحين.

37ـ فضح المسؤولين الفاسدين الذين يرتكبون الخطايا في أي لباسٍ

كانوا، وعدم تبرير أخطائهم؛ لأنّ ذلك بحكم خيانة الإسلام والمسلمين.

38- القضاء على ديكتاتورية المال والثروة، ومراقبة حركة الأموال وطريقة تداولها لضمان جريانها بطريقة عادلة بين طبقات المجتمع كلّها، والقضاء على طبقة المترفين والمسرفين، ومنع الأغنياء من استغلال نفوذهم المالي.

39- إصلاح النظام التعليمي والتربوي في كافّة الدول الإسلامية، وتيسير التعليم للأطفال والشباب في المجتمعات الإسلامية كافّة.

40- إصلاح أوضاع وسائل الإعلام بشكل ثوري، ورفع مستواها وتحريرها من الرجعية، على صعيد المضمون والأسلوب، ومنع الرجعيين من النفوذ إليها كي لا يستخدموها وسيلة لنشر فكرهم وثقافتهم، وتصفية صناعة السينما من الابتذال الأخلاقي والفني.

41- إحياء مبدإ الاجتهاد في جميع المذاهب والتعرّف إلى «الزمان»، و«الحوادث الواقعة» بطريقة صحيحة، واكتشاف الأسئلة الأساسية التي يعاني منها الإنسان المعاصر، واعتماد أهداف الدين ومقاصده معيارًا للاجتهاد وهمًّا أساسًا للمجتهد عند استنباطه للحكم الشرعي.

42- رصد الأبحاث العلمية التي تدور حول الإسلام على صعيد العالم، ومتابعة ما ينشر عنه في الصحافة ووسائل الإعلام، للدفاع عن الإسلام والفكر الإسلامي حيث تقضي الحاجة.

43- الثبات في مواجهة الإمبريالية العالمية، والاستفادة في هذا الميدان من كلّ الطاقات الإسلامية والإنسانية، وتنظيمها وتوحيد جهودها لضمان الغلبة والتفوّق.

44- مناهضة الأهداف غير الإنسانية للحركة الصهيونية، مع الاعتراف باليهودية كدين سماوي كتابي كما هي العقيدة الإسلامية في هذا المجال.

45- رصد الحركات التبشيرية في البلدان الإسلامية وغيرها، ومتابعة

جهود المبشّرين، وعدم الغفلة عن استغلال الاستعمار حركة التبشير بشكل سلبي. هذا مع احترام المسيحية كدين من الأديان السماوية.

46ـ التأكيد على إحياء «الحجّ الإسلامي»؛ أي الحج البنّاء الذي يؤدّي إلى اليقظة العبادية والسياسية، وتبيين معارف الحج العميقة وأبعاده الإنسانية والاجتماعية والسياسية ونشرها بين المسلمين.

47ـ التعرّف إلى العلوم التي أنتجها المسلمون عبر تاريخهم، وإبراز دورهم في تطوير العلوم والتقنيات التي انتهى إليها الغرب المعاصر لتوضيح مدى الدين الذي للمسلمين على ذمّة المجتمعات العلمية الغربية. والهدف من هذا الأمر هو إعادة الثقة بالنفس إلى المسلمين.

48ـ الكشف عن الموارد الإسلامية التي يستغلّها الغربيون في الدول الإسلامية.

49ـ حلّ مشكلة الإنسان المعاصر وإشباع حاجته إلى المعنى.

50ـ شرح أهداف الاستعمار في المجالات الآتية:

أ- ترويج القومية بين المسلمين.

ب- ترويج مفاهيم حقوق الإنسان وفق الرؤية الغربية، والاهتمام بالحرية من هذا المنظار.

51ـ تخليص الثورات الإسلامية من شوائبها، ومن كلّ أشكال الخلل التي لحقتها، باعتماد طريقة النقد الذاتي البنّاء، بهدف التمييز بين الآفات والمشكلات الذاتية والعرضية، ورغبة في الوصول إلى ثورة إسلامية صافية من كل شائبة.

52ـ اكتشاف الثوريين الحقيقيين والتميز بينهم وبين الطارئين على الثورة والملتحقين بها دون أن يكون لهم إيمان بأهدافها بغية محاصرتهم وإخراجهم كي لا يخرّبوا الثورة وأهدافها من الداخل.

53ـ عقد المعاهدات والتحالفات بين الدول الإسلامية والعمل على تأسيس جيش إسلامي واحدٍ.

54ـ توسعة الاستثمارات الإسلامية في مجال الصناعات العسكرية الدفاعية والهجومية، للوصول إلى قدرة الردع الذاتي للدفاع عن البلاد الإسلامية.

55ـ تعبئة الجماهير المسلمة وتزويدها بوعي هذه الأهداف المذكورة أعلاه.

56ـ ترويج التعاليم الأخلاقية في مجال استخدام السلاح واستعماله، وتعليم العسكريين على هذه القواعد كي يراعوها عند استعمال السلاح سواء مع المسلمين أو غير المسلمين.

57ـ تأسيس قوّات لحفظ السلام في الدول الإسلامية.

58ـ تأسيس منظمة الدول الإسلامية المتحدة.

59ـ مواجهة الغزو الثقافي الحادّ الذي تتعرّض له الدول والشعوب الإسلامية، وسبيل تحقيق هذا الهدف هو تقديم الفكر الإسلامي القرآني الراقي، والتعاليم الإسلامية السامية.

60ـ اعتماد الإنسان القرآني، هدفًا للتربية؛ أي تربية الإنسان على هدي تعاليم القرآن (بناء الفرد القرآني).

61ـ اعتماد المجتمع القرآني هدفًا للتربية الاجتماعية؛ أي تربية المجتمع على أسس قرآنية للوصول إلى مجتمع قرآني (بناء المجتمع القرآني).

62ـ الالتفات إلى أهمّية البعد الاقتصادي في الإسلام، والحرص على دوران عجلة الاقتصاد حول محور القسط والعدالة.

63ـ تشجيع العلماء المسلمين على التواصل وتبادل الزيارات، وتوثيق العلاقات العلمية بينهم، لما يترتّب على ذلك من تبادل الخبرات والمعارف.

64- تسهيل إجراءات التنقّل والسفر بين البلاد الإسلامية.

65- متابعة أمور المسلمين الذين يعيشون خارج البلاد الإسلامية ومدّ يد العون لهم عند الحاجة.

66- تأسيس صندوق مالي دولي للتعاون بين الدول الإسلامية، وسدّ حاجات المسلمين من هذا الصندوق الذي تسهم فيه الدول الإسلامية كلّها.

67- تدوين الكتب النافعة ونشرها، في ما يرتبط بتعريف الإسلام للراغبين في التعرّف إليه، مع مراعاة جمال الشكل وصحّة المضمون، ومراعاة سنّ المخاطب ومستواه المعرفي.

68- تأسيس منظمة ناشطة تموّلها الدول الإسلامية للدفاع عن المظلومين سواء كانوا من المسلمين أو من غيرهم، حتى لو اقتضى الأمر التدخّل العسكري عند الحاجة.

69- تأسيس مراكز إعلامية تستخدم وسائل التواصل الجماعي كلّها من قنوات فضائية وصحف وغيرها، بهدف إيصال صوت الإسلام ورسالته إلى المتعطّشين الراغبين في التعرّف إليه.

70- إيصال آخر رسائل السماء إلى البشرية، وإبلاغ صوت القرآن وغاياته إلى الإنسانية، بغية تنمية الفضائل الأخلاقية، وهداية الناس إلى ما فيه كمالهم ورشدهم في الأبعاد كلّها:

(1)- ترويج اللغات الإسلامية، واختيار إحداها لتكون لغة مشتركة بين المسلمين جميعًا.

(2)- البحث عن السبل الكفيلة بتحقيق التنمية بما يتناسب مع البلدان الإسلامية، وتجنّب المعايير الغربية للتنمية المبنية على الليبرالية الاقتصادية، والبعيدة كلّ البعد عن قيم الإسلام في العدالة.

(3)- ترويج مبادئ الاقتصاد والقناعة بين المسلمين، وتجنّب الإسراف، من أجل تحقيق هدفين هما:

أ- توفير الموارد الإسلامية، وزيادة فرص استثمارها.

ب- تحقيق الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي، والاستغناء عن الاقتراض وخاصّة الاقتراض من الأجانب.

(4)- الاهتمام بالبيئة وتقدير النّعَم الإلهيّة، والحذر من تلويث البيئة وتدمير الموارد الطبيعية. والاستناد في هذه التربية إلى التعاليم القرآنية.

71- إصدار دورية بعنوان «مجلة الوحدة» وغيرها من النشريات المفيدة التي تعمل على نشر الوعي والمعرفة، وعلى تقوية مشاعر الوحدة بين المسلمين.

72- بعث الأمل في نفوس أفراد الأمّة، بالمستقبل المشرق، وإعدادهم لصنعه واستقباله برجاء وثقة.

وأخيرًا ربط فكرة الاتّحاد التي نحن بصدد الحديث عنها بفكرة ظهور المهدي المنتظر؛ وذلك لأنّ فكرة المهدي فكرة إسلامية مشتركة بين جميع المسلمين، ولا ينكرها أحدٌ منهم حتّى المدرسة الوهّابية، تحتوي كتبها الحديثية على أحاديث عن المهدي وظهوره في آخر الزمان. وتعرّض لهذه الفكرة عددٌ من علماء المسلمين من السنّة والشيعة. وما دام هذا المبدأ مشتركًا بين المسلمين عمومًا، فحريٌّ بهم جميعًا أن يعملوا على تحويل هذه العقيدة إلى واقع في حياتهم ويسعوا إلى ملء الأرض قسطًا وعدلًا قبل الظهور وبعده.

المصادر والمراجع

1ـ أبو القاسم بن ميرزا بيگ (مير فندرسكي)، **رساله صناعية** (حقائق الصنائع)، تحقيق علي أكبر شهابي، مشهد، 1317هـ.ش.

2ـ أحمد بن حنبل، **الفضائل**، مخطوط، من مخطوطات موقع مركز الفقيه العاملي لإحياء التراث.

3ـ أفلاطون، **محاورات أفلاطون**، ترجمة: زكي نجيب محمود، مكتبة الأسرة، القاهرة.

4ـ الحسن بن علي (ابن شعبة الحرّاني)، **تحف العقول عن آل الرسول**، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1996م.

5ـ الحسين بن سينا، **الإلهيّات**، الجمهورية العربية المتحدة (وزارة الثقافة والإرشاد القومي)، بمناسبة الذكرى الألفية للشيخ الرئيس، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1380هـ-1960م.

6ـ ـــــــــــ، **رسائل ابن سينا**، تصحيح: ميكائيل مهرني، لندن، 1984م.

7ـ زين الدين بن علي (الشهيد الثاني)، **الروضة البهية في شرح اللمعة**

الدمشقية، تحقيق: محمد كلانتر، ط1ـ2، منشورات جامعة النجف الدينية، 1386ـ1398.

8ـ صادق جاويدان نژاد، **اطلاعات داروئى**، انتشارات دانشكاه تهران، ط5.

9ـ عباس القمي، **سفينة البحار**، دار الأسوة للطباعة والنشر، ط2، 1416هـ.

10ـ عبد الحسين الأميني، **الغدير في الكتاب والسنّة**، دار الكتاب العربي، ط4، لبنان، 1397هـ/ 1977م.

11ـ عبد الرزّاق اللاهيجي، **گزيده گوهر مراد**، تحقيق: صمد موحّد، مكتبة طهوري، طهران، 1364 هـ.ش.

12ـ عبد الله بن جعفر الحميري، **قرب الإسناد**، مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، ط1، قم، 1413هـ.

13ـ عبد الواحد الآمدي، **غرر الحكم ودرر الكلم**.

14ـ علي بن إبراهيم القمي، **تفسير القمي**، تصحيح وتعليق وتقديم: طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، ط3، قم، 1404هـ.

15ـ علي بن أبي طالب (ع)، **نهج البلاغة**، شرح: محمد عبده، دار الذخائر، ط1، قم، 1370 هـ.ش/ 1412هـ.

16ـ ـــــــــــ، **نهج البلاغة**، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: صبحي صالح، ط1، بيروت، 1387/ 1967م.

17ـ علي بن بابويه (الصدوق)، **الخصال**، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، 1403هـ.

18ـ ـــــــــــ، **علل الشرائع**، تقديم: محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف الأشرف، 1385هـ/ 1966م.

19ـ ـــــــــــ، **عيون أخبار الرضا (ع)**، تصحيح وتعليق وتقديم:

حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، 1404هـ/ 1984م.

20ـ ــــــــــــ، **كمال الدين وإتمام النعمة**، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، 1405هـ.

21ـ علي بن حسام (المتّقي الهندي)، **كنز العمال**، ضبط وتفسير: بكري حياني، تصحيح وفهرسة: صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1409هـ/ 1989م.

22ـ علي بن محمد الآمدي، **غاية المرام**.

23ـ علي نمازي، **مستدرك سفينة البحار**، تحقيق وتصحيح: حسن بن علي نمازي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، 1418هـ.

24ـ ــــــــــــ، **مستدركات علم الرجال الحديث**، شفق للنشر، ط1، طهران، 1412هـ.

25ـ الفضل بن حسن الطبرسي، **الاحتجاج**، منشورات الشريف الرضي، قم، لا تاريخ.

26ـ ــــــــــــ، **مجمع البيان**، تحقيق وتعليق : لجنة من العلماء والمحققين الأخصّائيّين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط1، لبنان، 1415هـ/ 1995م.

27ـ محسن الأمين، **أعيان الشيعة**، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، لبنان.

28ـ محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، مؤسسة الوفاء، ط2، لبنان، 1403هـ/ 1983م.

29ـ محمد بن الحسن (الحر العاملي)، **وسائل الشيعة**، تحقيق ونشر:

مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، ط2، قم، 1414هـ.

30ـ محمد بن الحسن الطوسي، **الأمالي**، تحقيق: مؤسسة البعثة (قسم الدراسات الإسلامية)، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، قم، 1414هـ.

31ـ ـــــــــــــ، **تهذيب الأحكام**، تحقيق وتعليق: حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، ط3، طهران، 1364هـ.ش.

32ـ محمد بن عبد الله (الحاكم النيسابوري)، **مستدرك الوسائل**، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، ط1، 1408هـ/ 1987م.

33ـ محمد بن عمر (الفخر الرازي)، **مفاتيح الغيب**، ط3.

34ـ محمد بن موسى الخوارزمي، **كتاب المناقب**، تحقيق: مالك المحمودي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط2، 1414هـ.

35ـ محمد بن يعقوب الكليني، **الكافي**، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، ط5، طهران، 1363هـ.ش.

36ـ محمد جمال الدين الأفغاني، **العروة الوثقى**.

37ـ محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

38ـ ـــــــــــــ، **شيعه در اسلام**، بنياد علمى وفكرى علامه طباطبايى، ط8، قم، 1360هـ.ش.

39ـ محمد رضا حكيمي وآخرون، **موسوعة الحياة**. ترجمه: أحمد آرام ، دفتر نشر فرهنگ اسلامى.

40ـ محمد رضا حكيمي، **امام در عينيّت جامعه**، ط11، دفتر نشر فرهنگ اسلامى، طهران، 1377هـ.ش.

41- ــــــــــــــــــ، **حساسترين فراز تاريخ يا داستان غدير**.

42- ــــــــــــــــــ، **حماسه غدير**، ط7، دفتر نشر فرهنگ اسلامی، طهران، 1377هـ.ش.

43- ــــــــــــــــــ، **خورشيد مغرب زمين**، ط12، دفتر نشر فرهنگ اسلامی، طهران، لا تا.

44- محمد محسن بن مرتضى (الفيض الكاشاني)، **الوافي**، عني بالتحقيق والتصحيح والتعليق عليه والمقابلة مع الأصل: ضياء الدين الحسيني (العلامة الأصفهاني)، مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي (ع) العامة، ط1، أصفهان، 1406هـ.

45- هادي كاشف الغطاء، **مستدرك نهج البلاغة**، منشورات مكتبة الأندلس، لبنان.

46- ورّام بن عيسى، **مجموعة ورّام**، دار الكتب الإسلامية، ط2، طهران، 1368هـ.ش.

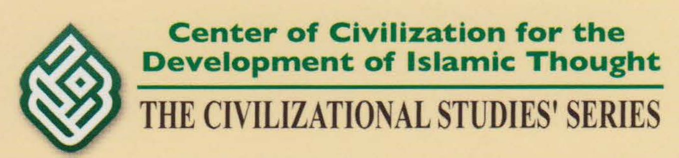
47- يحيى السهروردي (شهاب الدين)، **هياكل النور**.

إنّ الاجتهاد المحدود لا يبني المجتمع. وربّما يُسأل هنا: هل يجب على الاجتهاد أن يكون بنّاءً للمجتمع وهل هو علم اجتماع كي يطلب منه الإسهام في بناء المجتمع؟! وفي الجواب عن هذا السؤال نقول: إنّه ليس علم اجتماع ولا هو معرفة نظريّة بالمجتمع؛ بل هو أعلى من ذلك بكثير هو الذي يبني المجتمع. هذا، وقد كانت أكثر البحوث المعنية بالاجتهاد تدور حول أحكام الدين دون النظر إلى مقاصده وغاياته، وأنا أريد البحث عن الاجتهاد من زاوية الأهداف... فقد اتّضح أنّ الاجتهاد قد دخل مرحلة جديدة ووطأ أرضًا كان يجب عليه أن يطأها، وأن تكون له فيها مهمّة ودور... والأمّة تتبع نخبها الدينيّة فإذا كانت النخب تعيش في كهوف التاريخ فسوف تتبعها الأمّة إلى تلك الكهوف والعكس صحيحٌ أيضًا... وأهمّ عناصر التجديد في الفكر الدينيّ المعاصر البحث عن الأهداف والغايات. والعدالة من أعظم الأهداف وأكثرها خطرًا...؛ ولا يجوز غضّ النظر عن هذا الهدف عند استنباط الأحكام الشرعيّة.

المؤلّف
من الكتاب بتصرف

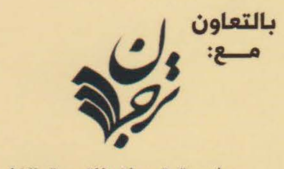
Justice as a Basis and Goal

Reflections on Qoranic society





بالتعاون مع:



مؤسسة «ترجمان» للترجمة والنشر

مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

بناية ماميا، ط٥ - خلف الفانتزي وُرلد - بولفار الأسد - بئر
هاتف: 826233 1 961+ - فاكس: 820378 1 961+
2
E-mail:info@hadaraweb.com - www.hadaraweb.com